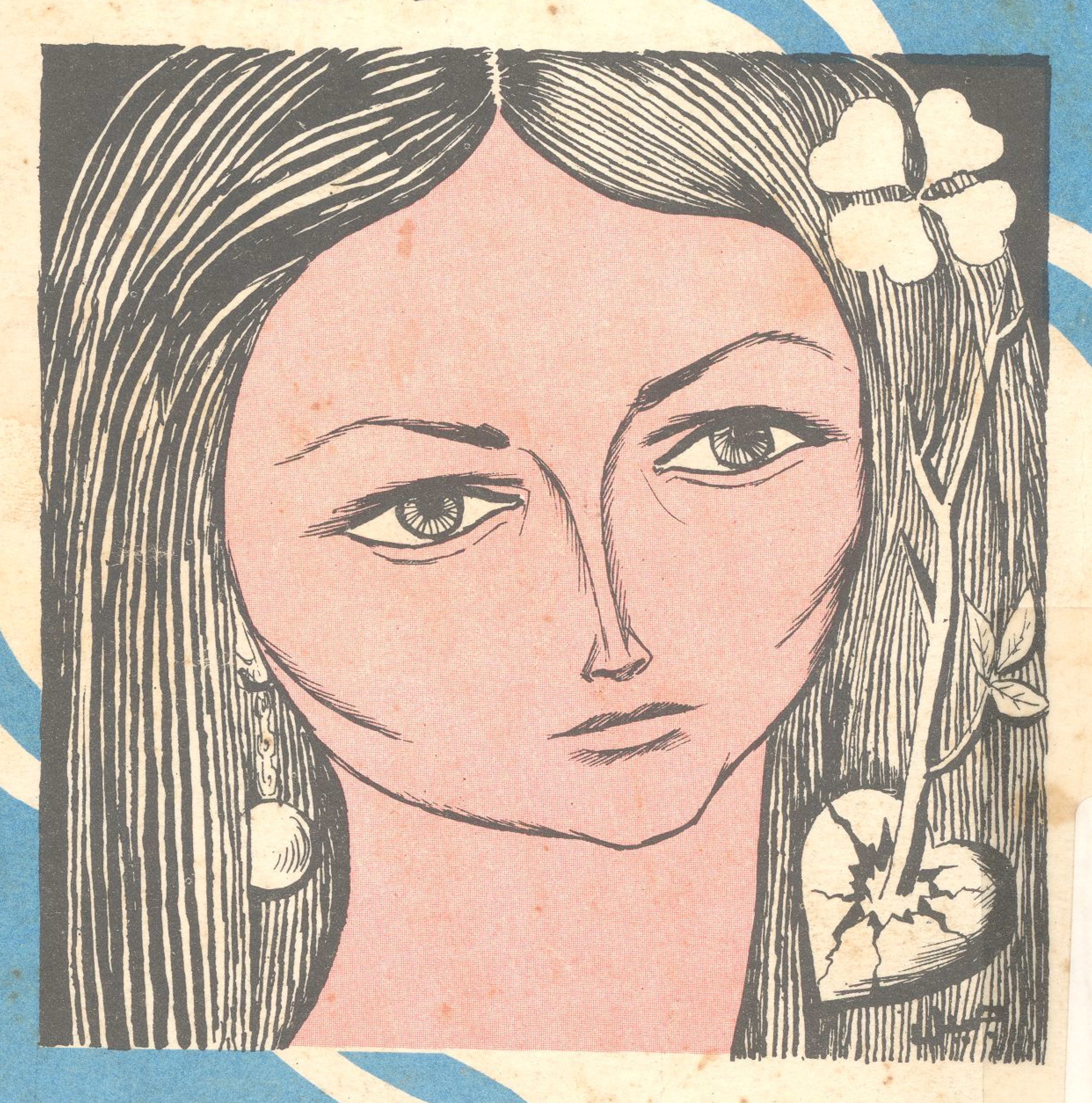
إقرأ

قالت له ..



محمد زكي عبد القادر

دار المعارف بمصر

م
٦



تصدر في أول كل شهر

رئيس التحرير: عادل الغضبان





محمد زكى عبد القادر

قالت له . . .

اقرأ ٣٠٧

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٠٧ – يولية سنة ١٩٦٨

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

الاستقرار

قالت له : هذه المرأة . . . أنا أو هى ؟
وسألها متعجباً : أية امرأة ؟
أجابت بتقطيب وحزم : لا أعرف من هى ولكننى متأكدة أن امرأة أخرى فى حياتك . . .
قال : لا أعترف بالتأكيد المستند إلى مجهول . .
قالت والغيظ يقتلها : الكهرباء لا نراها ولكننا نعرفها . .
سأل فى شبه سخرية : وهل هذه المرأة مثل الكهرباء . . .
كتمت ضيقها وتجاهلت سخريته وقالت جادة : مثلها من حيث أثرها ... لقد تغيرت معاملتك لى واستقبالك إيّاى وسؤالك عنى . . .
ـ ولكننى لا أحس أننى تغيرت . . .
ـ الذى يحس التغيير من يوجه إليه التصرف ،وليس من يقوم به .
قال متلطفاً : هذا وهم أكثر منه حقيقة ... هذه هى المرأة دائماً .
ـ ماذا تعنى ؟
ـ أعنى أن المرأة أكثر أوهاماً وخيالا من الرجل .
ـ أنت مخطئٌ ، إنها واقعية . إذا أردت الحق ، قلت إن إحساسها يقودها أكثر من أى شىء آخر . .
ـ قد يكذب الإحساس . .
ـ بل هو صادق فى كل الأحوال . . الألفاظ يمكن أن يتلاعب بها الإنسان . نبرة الصوت والتعبير يمكن أن يكون كل منهما مجالا للخديعة ..
وسأل فى سخرية أقل : تعنين أن المرأة ملهمة . .
وزادت فى كبت شعورها وقالت جادة أيضاً : شىء من هذا . .

ـــ أنت تبالغين ، لم يذكر التاريخ أن رسالة الإلهام نزلت على امرأة .
قالت متحدية : ولكن ذكر التاريخ أنها حكمت الرجال .. دوختهم ..
ـــ بالخديعة ، لا بالإلهام .
وكادت تقذفه بطقطوقة فى يدها ثم كزت على أسنانها وقالت : الرجل هو الذى يعرف الخديعة . . هو الذى أنشأها . .
واحتفظ بثباته وسأل : هل خديعته هى التى طردت حواء من الجنة أم أن حواء هى التى طردت آدم ؟
وأحست أنها فى مأزق ولم تعرف كيف تجيب ، فأنشبت أظافرها فى عنقه وانهمرت دموعها وهى تقول : قل من هى المرأة الأخرى . . قل وإلا قتلتك .
وأبعد أظافرها عنه فى رفق وقال : لا المنطق ينفع ولا الحق ينفع مع المرأة . .
ونشجت ببكاء ثقيل وقالت فى ضعف تقويه الدموع : أنت ظالم ، رجل ظالم تستغل ضعف المرأة كما يفعل كل الرجال . كسر الله قلبك مثل ما كسرت قلبى .
ولم يجد بداً من أن يربت على كتفها ويعتذر إليها من قسوته وظلمه ، فزادت من نشيجها واستطاع أن يسمع بصعوبة ألفاظها المتقطعة : قل من هذه المرأة . . هناك امرأة ، لا تحاول أن تخدعنى . .
وضمها إلى صدره فى حنان وجفف دموعها فى رقة ، وأطال النظر فى عينيها ، فهدأت بعض الشيء واستكانت بين يديه . . .
ومرت فترة من الصمت العسير ثم قالت : هل تحبنى حقيقة ؟
ـــ ارجعى إلى إحساسك .
ـــ أحياناً يقول إنك تحبنى ، وأحياناً يقول إنك تخدعنى . .
وسألها : والآن ماذا يقول ؟

٧

وردت فى صوت ناعم : يقول إنك تحبنى . . رأيت ذلك فى عينيك.
وأدناها منه وقال فى صوت أكثر نعومة ورقة : وهذه هى الحقيقة ..
وقالت فى صوت الذى يريد فض المعركة : هل أطمئن إليك ؟ إن المرأة لضعفها تريد الاستقرار فى ظل رجل يحبها ويحميها .
قال وهو يعبث بشعرها الناعم المتهدل : ألا تشعرين الآن باستقرار ؟
ــ غاية الشعور ، ولكننى أخشى المستقبل . الشك يقتلنى .
ــ وهو الذى يحمى الحب بيننا .. لا تكرهيه . إنه الغذاء القبيح للحب الجميل .
وسألت فى هدوء لذيذ وهى متشبثة بعنقه : ألا توجد امرأة اذن ؟
قال : بل توجد . . .
وهبت مذعورة كمن استيقظت من نوم هنىء على كابوس ثقيل . من هى ؟
أجاب مبتسماً وهو يضمها إلى صدره : أنت .. أنت كل امرأة فى الوجود .

اللحظة العابرة

قالت له : هل كل المذنبين يلقون العقاب ؟
قال : هكذا أظن .
قالت : لا أعنى المذنبين طبقاً للقانون ، ولكننى أعنى الذئاب التى تريد أن تفترس الضحايا . . .
ـ تعنين . . .
سارعت قائلة : أعنى الرجال الذين يريدون أن يأخذوا الثمن قبل أن يقدموا الفتاة للعمل أو الشهرة أو المجد أو المال ..
واستطردت : كل شيء عندهم له ثمن ، فإذا لم تبذله الفتاة فلا بد أن تظل فى آخر الصفوف .
قال : أنت متشائمة أكثر مما يجب . إذا كان هناك من يريدون قبض الثمن فإن هناك أيضاً من يبذلون دون أن ينتظروا الجزاء . .
واضطربت بعض الشيء وقالت مصممة : فقدت ثقتى بكل الناس ، أعنى الرجال . . . بعض الناس يظن أن الفتاة أمامها فرص أكثر مما هى أمام الشباب .
قال مقاطعاً : وهذا ما أعتقده . تخرج قبل الميعاد وتأخذ من الإجازات أضعاف ما يأخذ الرجل . . يقربها الرئيس ويحنو عليها الزملاء وتجد فى ضعفها مادة صالحة لأخذ الحق وغير الحق . . فإذا لم ينجح الضعف فنى البكاء الترياق . .
قالت وهى تنتفض : وهل يفعل الرجال هذا حسبة لوجه الله ... كلا إنهم يفعلونه ووراءه أغراض وأغراض . . إنها تسير فى طريق من الشوك . .

قال : تستطيع أن تحتفظ بنفسها لو أرادت وصممت . .

قالت : تفعل على حساب أعصابها ، وقلما تثبت للتجربة أو تستطيع السير إلى آخر الطريق . .

— تعنين . . .

وقبل أن يكمل كلامه قالت : أعني أن كل من تقدمن من الفتيات في الأعمال وراءهن رجل صديق أو زوج أو طامع في صداقة أو زواج .. خذني مثلا . بدأت العمل وفي ظني أنني كالرجال أعتمد على كفايتي واستعدادي وما بيدي من شهادات . ولكن هذا كله ذهب وبقي شيء واحد هو أنوثتي . كل واحد يساومني عليها فإذا لم أستجب فالعذاب والعقاب ، أو على الأقل الإهمال والاضطهاد . . كان في استطاعتي أن أتزوج وأريح نفسي من هذا العذاب ،ولكنني أريد أن أشعر بكياني كإنسان يستطيع أن يعمل وليس كمجرد امرأة يمكن أن تتسلق على أكتاف الرجال . . إنني في أزمة ، في محنة . . كل الصور تضطرب وتختلط أمام عيني . أصبحت الفضيلة أمام الناس عقدة من العقد . جلس الرجل الكبير أمامي وأمسك بيدي واستردتها منه فعجب وقال أنت معقدة .. قلت له : وإذا تركت يدي لك وبعد يدي سائر جسمي أفلا أكون معقدة ؟ .. قال : أنت تبالغين . قلت: بل أنت تريد أكثر مما أستطيع أن أعطي . قال:ولكن يدك .. قلت:المسألة ليست يدي، المسألة ما في عينيك من نظرات وما في همسات لسانك من معان . . . ضحك وقال : غرضي شريف . قلت له : يمكن أن يكون غرضك شريفاً أيضاً دون أن تمسك بيدي . .

وسكتت لحظة ثم استطردت : أستطيع أن أحكي لك عشرات وعشرات من الحوادث . في كل مكان يوجد فيه عمل أجد رجلا يحاول أن يأخذ قبل أن يعطي . . لا تقل مثل غيرك إن طريق العمل أمام الفتاة مفروش

بالزهور . . كلا ، إن الفتاة أسوأ حظا من الشاب . إن عندها ما يطمع فيه الناس وليس لديهم ما تطمع هى فيه .. إننى لا أعطى نفسى إلا لرجل أحبه وأشعر أنه يقف على حياته العمر كله . لن أبذلها من أجل لحظة عابرة .. ولكننى أريد أن أعمل . أنا فى حاجة إلى العمل ، وكى أحصل على العمل لابد أن أبذل هذه اللحظة العابرة . . إنها مأساة . .
هل كل ذنبي أننى امرأة ؟

زاد السنوات والأيام

قالت له : أو تحبنى ؟ إننى لم أسمع هذه الكلمة من أحد .

وكان وجهها فيه هذا الألم المكتوم والصبر المجروح والإحساس بأن أنوثتها لا تستهوى الناس . وسكتت وكأنها تسترجع ما أفضت به ... إنها لم تخلق للحب أو هكذا تصورت . وقالت :

— كلا . . لم أكن أطمع فى هذا . . لقد رجوتك أن تدعنى أحدثك من وقت إلى آخر وأن أزورك من وقت إلى آخر. إن فىّ عجزاً كما ترى .. كتفى يؤلمنى وذراعى لا أستطيع تحريكها كما أشاء .. إننى راضية بقدرى . الذين يحبون ويحبهم الناس أشخاص آخرون غيرى .

قال : إنك تبالغين ، إن فى عينيك وميضاً غامضاً حلواً . . إن وجهك فيه أحلام العذراء . .

قالت : عجباً . . كيف تراها ، أنا نفسى أذودها عن نفسى ، إنى أعرف أنه ليس من حقى أن أحلم كما تحلم أى عذراء ؟

قال : ولكنك تحلمين ، يجب أن تحلمى . . . إن ما بك من عجز لا يرى . . . إن إشعاع شبابك وأنوثتك قادران على أن يخفيا أضعاف هذا العجز . . .

قالت : إنك تعطينى الأمل . . . قلها مرة أخرى ، أريد أن أسمعها لا لأصدقها ولكن لكى أشعر أننى سمعتها مرة فى حياتى .

قال : إنى أحبك . .

وسكتت ، وأشرق وجهها بوميض عجيب هو خليط من التصديق والتكذيب ، وهامت فى رؤى عذبة ، وبدت أمامه وكأنها قديسة فى أرض من الحرمان . كانت كأنها تتعبد لله الذى حرمها ووهبها وأضفى عليها

الصبر والسكون، وجمع فى جسمها وكيانها وقلبها وكل جارحة من جوارحها ما تجمع الحياة للأنثى . . وقد أنكرت هذا كله على نفسها ، وظنت أنه ليس من حقها أن تكون كغيرها . . أتراها كانت مخطئة ؟ هل صحيح أن فيها سحراً يستهوى الرجال ؟ هل يمكن أن ينبض لها قلب ويهتز وجدان ؟ ربما . . بل لماذا لا يكون ؟ من المؤكد أن الله الذى حرمها من شيء منحها أشياء .. لا يمكن أن يخلقها هكذا ويدعها للظلام واليأس .

مرّ هذا كله فى لمحة بل فى أقل من لمحة ، واستدارت إليه كأنها تفيق من حلم عذب وقالت :

ــ إنك تفتح أمامى جواً جديداً عذباً ، أو تقول الحقيقة ؟ إننى لا أصدق .

واضطرب ، ونظر فى وجهها ، فأحس فيه الضراعة مختلطة بالكبرياء ، والصبر الراضى ممتزجاً بالثورة المكتومة ، والأحلام المرفرفة بجناحيها مقيدة باليأس من التحليق . . .

ولم يستطع إلا أن يأخذ الجواب من هذا الوجه الذى فرض نفسه عليه فرضاً وهمس : بل أقول الحقيقة . .

وأحست الفتاة فى كلامه شعوراً عجيباً حارت فى تحليله ، ولكنها نهضت وقالت له :

ــ شكراً ... يكفينى هذا زاداً لأيام وسنوات .. سأحلم كما تحلم الأخريات .

ولما تولت عنه شعر بغبطة عجيبة وقال وكأنه يدعو : رب انثر عليها سلام رحمتك . إن كنت قد أخطأت فاغفر لى ، إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

الامتلاء والفراغ

أحسست بعواطفها تجف وينبوع الهناء الذى كان فى قلبها كأنه يتبخر ، ولم تجاوز الخامسة والثلاثين من عمرها . فقدت الإيمان بالحب والناس والأشياء . . بالأيام ما مضى منها وما هو بين يديها وما لا يزال محجوباً فى ضمير الغيب . وضاقت بالحياة ، وأحست بها كالفراغ البعيد ليس فيه واحة ولا ظل .

وقالت للرجل الذى أحبته ذات يوم : ماذا ترى فىّ وقد سكت كل نبض . أنا ثابتة لا أتحرك .

سألها : ربما كانت صدمة هى التى صنعت بك هذا كله ؟

ورنت إليه بعين حلوة مات فيها الشعاع القديم ، وسألت : ألا تزال تحبنى ؟

أجاب : كما أنا وربما أكثر . .

ـ هذا عجيب . . أنت ترانى معك كالدمية ، وكنت من قبل إذا رأيتك تفجرت فىّ الأحاسيس والعواطف . . . تمنيت لو عدت كما كنت ولكننى لا أستطيع . . كنت فيما مضى أقضى الليل باكية إذا لمحت أنك انصرفت عنى والآن أقضى الليل باكية لأننى لا أبكى انصرافك عنى ولا أفرح لقربك . . . أترانى سأموت . . وما هو الفرق بين حالتى هذه وبين الموت ؟

أدناها منه وقال فى عطف : ستصحو عواطفك . . هى صدمة فيما أظن . . لعله موت أبيك . . لعله موت أملك . .

وتأملت برهة استرجعت فيها الحوادث ثم قالت : حينما ماتت أمى اضطربت حياتى بعض الشىء ولكنها استمرت بعد ذلك وأنت تعرف

كل شيء . . .

ـ إذن . . ربما كان موت أبيك .

وأغمضت عينيها لمحة ثم فتحتهما وقالت : صحيح إن موت أبى كان كارثة أشد ولكن هل تظن أنه يحدث بى ما أحدث ؟ . . لعله أنت لأنك لم تقابل عواطفى بمثل قوتها .

سألها : وما هى قوة العواطف عندك ؟

ـ لا تسألنى عنها الآن . كل ما أذكره أننى كنت أقضى الليل مسهدة بينما أنت فى نوم عميق..هل تذكر الخطاب الذى أرسلته إليك وأنا فى الإسكندرية . . كان قمة الحب وثورته . . ثم . .

ـ بدأ ينحدر .

ـ هذا ما أذكره الآن .. السيل حينما يبلغ الجبل ولا يجد اليد التى تشده ينحدر . . تركتنى وحدى فاحترقت حتى أصبحت ، رماداً .. لقد أدركت الآن أن عواطفى جفت لأنها احترقت وحدها .

ـ ولماذا لم تجف عواطفى ؟

ـ أنت لم تحبنى أبداً . إن ما بك ليس عاطفة حب ولكنها عاطفة أخرى ربما كانت التقدير ، ربما كانت العطف ، ربما كانت مجرد مقابلة بالمثل لعاطفة طاغية .

ـ كلا ، الخطأ الذى وقعت فيه هو الشك . . إنه هو الذى أحرقك .

ـ الشك يحيى العاطفة ولا يحرقها . .

ـ إذا كان شكاً يبدو من وقت إلى آخر وتتخلله فترات من الطمأنينة ، ولكن الشك الذى بك دائم وقد نقلته من العاطفة وجعلته يشمل حياتك كلها فسممها ، وجعلك ما أنت عليه الآن.. أجيبى بصراحة هل تصدقين أحداً من الناس ؟ هل تثقين فى أحد من الناس ؟

غام على وجهها الذكى سحاب من ألم وقالت : لا أثق فى أحد ولا

أصدق أحداً .

ــ هكذا انسحب الشك فى رجل إلى الشك فى كل الرجال ،وانسحب الشك فى الرجال إلى الشك فى سائر الناس . . هل تثقين فى عواطف أقربائك . . إخوتك أخواتك مثلا ؟

ــ إذا أردت الحق لا أثق فى أحد . . إن موقفى فى الحياة هو موقف عجيب . .

ــ عدم المبالاة ؟ . .

ــ ليته كان كذلك . التى لا تبالى بالحياة تشعر بها وتتخذ منها موقفاً. ولكننى أشعر أننى غريبة عنها وكأنها ليست دنياى .

ــ ألا يمكن أن تستردى ثقتك فى الحياة والناس ؟ . .

ــ تمنيت لو استطعت . .

ــ حاولى . . اذكرى أننى أعطيتك وأعطيتنى أحياناً فترات من السعادة ربما لم تكن طويلة ، لمحات . . والتى تستطيع أن تعطى لمحة صغيرة تستطيع أن تعطى لمحة كبيرة !

ــ ضع يدك فى يدى . . المس بيدك جبينى . .

ووضع يده فى يدها ومر بيده على جبينها ولكن وجهها ظل جامداً ونظرتها خالية من الضياء والشعاع .

قالت : حالة ميئوس منها . قارن هذا بما كان يحدث فيما مضى . . . الأفضل أن نفترق . . لقد مات الحب .

ــ ربما ينبثق من جديد لشخص آخر .

ــ أرتاب فى هذا كثيراً . أحس أن المعنى نفسه مات فى قلبى .

ــ الحب لا يموت . ربما يموت لشخص معين ولكن من أؤكد أن ينبعث لشخص آخر .

ــ هل أنت واثق من هذا ؟

ـــ لا ثقة لى فى أى شيء يتعلق بالعواطف . . ولكننى ما أحسب فتاة لها مثل حساسيتك يمكن أن يموت الحب فى قلبها .

ـــ ولكنه مات . . حالة شاذة . . أليس كذلك ؟

ـــ إنما يقرر هذا الزمن والأيام . . دعيها تفعل فعلها . ما زلت واثقاً أن حبك فى غفوة وسيصحو ذات يوم .

ـــ تمنيت لو صحا . . إن الفراغ قاتل . . أنت لا تشعر به . كما أن الامتلاء يقتل ، كذلك الفراغ .

الأغبياء السعداء

قالت له : كأنك تحبنى ؟

قال : ألا تصدقينى ؟

قالت : الظاهر يؤكد ، ولكن إحساساً خفيًّا فى داخلى يقول « لا » .

ـ تؤمنين بالإحساس .

ـ هو عندى أصدق .

ـ كثيراً ما يكذب

ـ الحب ليس أقوالا وأفعالا ولكنه دبيب خفى فى النفس .

ـ وهل اعتدت من إحساسك ألا يكذب ؟

ـ هكذا عرفته

ـ ليست فى الحياة قاعدة مطردة ، لابد من الاستثناء . .

قالت : ولكننى أتبع إحساسى دائماً .

ـ حتى ولو خدعك ؟

ـ هوأصدق على كل حال من الاعتماد على الأقوال . الأقوال يتلاعب بها الناس .

ـ إذا صمت ، تستطيعين أن تعرفى ؟

واضطربت قليلا قبل أن تجيب : بل تكلم . .

ـ ما فائدة الكلام إذا كان لا يبين ؟

ـ فيه الصحيح والزائف .

قال : هل أنت قادرة على التمييز بينهما ؟

ـ بإلهام المرأة .

ـ والرجل ، أليس له إلهام ؟

قالت : أنا أتحدث عن جنسى . . أجب أنت .

ـ لا أعرف على التحديد ولكن قلبى يقول لى إنك تريدين أن تجربى

سحر أنوثتك .

ـ وهل فى هذا عيب . . ؟ هذه هى المرأة .

ـ العيب أنه سلاح خطر . . .

ـ تخافه ؟

ـ أخاف السلاح ذا الحدين .

ـ أيهما تخاف منه أكثر . . ؟

ـ كلاهما . . الحدان . .

ـ ومن أجل ذلك تبتعد عن المرأة .

ـ وهى تقترب . . .

ـ إنك مغرور . .

ـ بل خائف . وفى أحيان كثيرة يصبح الخائف كالمغرور . . وفى أحيان كثيرة يصبح الواثق كالمغرور .

ـ كلانا مغرور إذن . .

ـ أخشى أن يكون الأمر كذلك . . لا بد أن يكون أحدنا غبياً حتى يحب .

ـ الحب غباء إذن ؟

ـ لا بد أن يكون فيه عنصر الغباء .. إن الذكاء ـ كالغرور ـ يفسده.

ـ لم أفهمك .

ـ ألم تقرئى بعض ما كتب نثراً ونظماً عن الحب .. إنه ناطق بالغباء ، غباء المحبين ، وهو شىء جميل . إن الحياة جميلة ، والحب ـ أجمل ما فيها ـ محتاج إلى الغباء .

ـ قصدت التغابى ، أظن . .

ـ سميه كما تشائين . . إن الحب الذكى متعب .

ـ كل المحبين أغبياء إذن . .

ـ وهم لذلك سعداء

الجنس الثالث

نظر إليه فى ابتسام وسأله أن يحكى له أمره معها ، قال : أعطيتها كل ما تريد . ما من شىء طلبته إلا أجبته . قدمت إليها أفخر الهدايا ، كل شىء . . .

ــ وبعد . . .

ــ أعلنتنى اليوم أنها لا تحبنى وأنها تريد فسخ خطبتى لها . .

ــ هل تحبها ؟

ــ ولماذا خطبتها إذن ؟

ــ ليس من المحتم أن يحب الخاطب خطيبته. كثيرون يتزوجون من أجل المصلحة .

ــ أما أنا فتزوجت بقلبى ، ما ظننت أنها تعبث بى . اعتقدت أنها تحبنى والآن تقول إنها لا تفعل . إننى لا أصدق. عندى شواهد كثيرة.

ــ وهل الحب يحتاج إلى شواهد . إنه نبض فى القلب والوجدان تحسه ولا تبحث له عن شواهد .

ــ تعنى . . .

ــ أعنى أن الشواهد تفسده ، وكثيراً ما خدعت . أرأيت إلى امراة تعطى زوجها كل الشواهد على الحب وهى لا تحبه . .

ــ ولماذا تفعل ؟

ــ لأن الزواج ضرورة اجتماعية ، المرأة محتاجة إليها .

ــ تخدعه . . .

ــ قد لايكون خديعة ولكنه كما قلت لك ضرورة اجتماعية. . .رباط الأولاد، نظرة الناس، الحاجة إلى الاستقرار، السكون إلى بيت وزوج ...

ـ هل هذه تصلح بديلاً عن الحب ؟

ـ تختلط به أحياناً . ومن هنا قلت لك إن الحب ليست له شواهد أو بتعبير أدق ليس فى حاجة إلى شواهد ، وقد يكون عدم وجوده هو الدافع إلى إثبات وجوده ، ولذلك تتأكد شواهده .

ـ وكيف يمكن التفريق بين ادعاء الحب مع شواهد تؤكده، وبين وجود الحب الصحيح دون الحاجة إلى شواهد ؟

ـ الذى يحب بصدق ينتقل منه شعاع غير منظور إلى قلب من يحبه. أما الذى لا يحب فيحتاج إلى تأكيدات ظاهرة عديدة تنفى الظن بأن الحب غير موجود .

وتأمل قليلا وهو واجم ثم سأل فى خوف: تعنى أن الظواهر لا قيمة لها؟

ـ قيمتها تأتى مرتبطة بالإحساس الصادق بها . وفى الحب الصحيح يغنى الإحساس عنها..وسكت قليلا ثم سأله: ألا يجوز أن يكون السبب فى انصراف الفتاة عنك أنك تلبى كل طلباتها ؟

وتولته دهشة وقال وهو مبهوت : حسبت أن هذه هى السبيل إلى إرضائها .

ـ المرأة تحب الرجل العصىّ . . تحب أن تصطدم إرادتها بإرادته ، تحب الصراع للظفر به تأكيداً لسلطانها ، وتحب أكثر من كل شىء الهزيمة أمام إرادته . .

ـ ولكنها تغضب . .

ـ تغضب وتملأ الدنيا صياحاً وفى قرارة نفسها تلتمس حلاوة الضعف أمام قوة الرجل .

ـ أنت تحيرنى . . .

ـ لا حيرة فى الأمر . خضوع رجل يزهدها فيه والصراع معه يذكى عواطفها . إن المرأة مخلوق متناقض .

ـ والرجل ؟

ـ متناقض أيضاً ، ولكن التناقض فى المرأة أكثر ظهوراً ، لأنها الأضعف .

ـ تعنى أن المرأة القوية تكون أقل تناقضاً ؟

ـ لا توجد امرأة قوية ورجل قوى فى العلاقات بين الجنسين ولكن يوجد رجل وامرأة لكل منهما خصائص جنسه . .

سأل : والغموض الذى يحيط بالمرأة ؟

ـ بعض خصائص المرأة وقد كسبته لطول ما خضعت للرجل ، وسترى فى المستقبل أن هذا الغموض سيختفى بحكم التطور الحادث فى العالم اليوم وهو اقتراب الجنسين فى الحقوق وتقرير المساواة بينهما ، ألم تسمع ما يقوله بعض العلماء والمفكرين من أنه سينشأ جنس ثالث . .

وفتح فمه دهشة : جنس ثالث . . ماذا تعنى ؟

ـ أعنى جنساً ليس فيه خصائص المرأة كما تعرفها ، جنساً وسطاً تذهب منه الرقة ويقل الغموض والسحر وتنشأ فيه خصائص جديدة كالعقل الصريح والفكر الثاقب . . .

ـ عقل ، وهل الرجل محتاج إلى عقل ؟ عنده منه ما يكفيه ، الحياة تصبح ثقيلة .

ـ أنت تشكو الآن من الغموض ، سيذهب الغموض .

وفكر قليلا ثم قال : ولكن الوضوح أيضاً ثقيل . .

ـ أرأيت . . وسأقول لك شيئاً آخر سينشأ جنس جديد من الرجال . .

ـ أنت تبالغ . . .

ـ لا مبالغة كما تظن . . قارن بين رجل اليوم وبين رجل الغابات منذ مئات الألوف من السنين ، أليس الرجل الآن نوعاً جديداً . . ؟

ـ ولكن الخصائص الأساسية باقية . . .

ــ ليس كما تظن . كانت القسوة وقوة البدن تأسران المرأة فيما مضى ، والآن يأسرها العقل الذكى . . .

ــ والرجل ماذا يجذبه إلى المرأة . . ؟

ــ فيما مضى كان الجسد وحده والآن الجسد والفهم الذكى . .

ــ هل المرأة الذكية أفضل ؟

ــ الذكاء جمال أيضاً . .

ــ ولكن الغبية أسلس قياداً . .

ــ كان هذا رأى رجل الغابة أما الرجل المتحضر ، فيؤثر المرأة الذكية . . .

ــ تتعبه .

ــ والغبية تتعب أيضاً .

ــ بل تريح . . .

ــ تريح الرجل الذى يريد أن يتسلط ، لا الذى ينشد المشاركة . .

وتريث قليلا ثم قال : خرجنا عن الموضوع . .

ــ وما هو الموضوع ؟

ــ فتاتى التى تريد فسخ خطبتها .

ــ دعها قليلا ، إنها نزوات المرأة . .

ــ تعنى أن أهمل طلبها ؟ . .

ــ كلا ، قل لها إنك متفق معها تماماً فى وجوب فسخ الخطبة ، وسترى أنها ستتراجع . إن المرأة تحب الرجل القوى .

وبدا أنه يضيق بكلام صاحبه ، وقال محتجًّا : تعنى أننى لست رجلا قويًّا ؟

ــ لم أقل هذا ، ولكننى أضع قواعد عامة . .

وسأل : وماذا يكون الأمر لو وافقت على فسخ الخطبة . . ؟

ـ أنا واثق أنها ستوافق أول الأمر لكى تختبر مدى جديتك فإذا لمحت أنك مصمم فثق أن موقفها سيتغير .

ـ وإذا لم يتغير ؟

ـ اعرف حينئذ أنه من الخير لك ولها أن تنفصلا .

ظل الرجل على المرأة

قال لها : سنتزوج بعد أن أجد عملا .
قالت : أنا أعمل وأكسب. مرتبي يكفي أن نعيش إلى أن توفق إلى عمل.
ــ لا أشعر أنى كفء لك ما لم أكن أقوى منك . والعمل لديك قوة . وفقدانه عندى ضعف . .
ــ ولكننا شركاء نتعاون .
ــ ولكنها شركة سيكون فيها قوى وضعيف .
ــ ومن قال ذلك ؟ . هل بين الزوجين قوى وضعيف .
ــ نظريًّا الجواب بالسلب . أما واقعيًّا فالجواب بالإيجاب.نعم يوجد فيها قوى وضعيف . ستسأمين ذات يوم أنك تنفقين على رجل . .
ــ ولكنه زوجى . .
ــ حتى لو كان زوجك . .
ــ وأنت قد تنفق فى المستقبل علىّ ، إنه تعاون . . .
ــ إذا أنفقت عليك ، لا أجد غضاضة . . أما إذا كان الإنفاق منك فهنا الغضاضة .
ــ أنت تنظر إلى المرأة كأنها الأدنى . . .
ــ كلا ، ما نظرت إليها قط كأنها الأدنى .. نظرت إليها دائماً كأنها الأضعف . . أنت نفسك بحكم أنوثتك تحبين أن تكونى الأضعف ويكون زوجك الأقوى . .
ــ كان هذا فيما مضى حينما كانت المرأة لا تعمل . . . أما الآن فلم يعد لمثل هذا الظن حساب .
وسكت قليلا ثم قال : أنت متخرجة فى كلية الآداب فهل تقبلين أن



تتزوجى شابا لم يحصل فى تعليمه إلا على شهادة متوسطة ؟
وتريثت قليلا ثم ترددت وتلعثمت وجازفت قائلة : إذا كنت أحبه .
ــ وهل تستطيعين أن تحبيه ؟ . . تستطيعين أن تحبي رجلا أقل منك ذكاء وتفكيراً وشخصية ؟ . . تذكرى لقد رفضت غيرى ممن تقدموا إليك وكان السبب هو ضعف مستواهم العلمى .
ــ وماذا فى هذا ؟
اعتدل الشاب فى جلسته وقال : سأوضح لك الأمر . . أنا أستطيع أن أحب فتاة متوسطة التعليم مع أنى أكملت تعليمى وحصلت على شهادة جامعية . . بل لعلنى كنت أفضل أن أفعل هذا حتى أشعر دائماً أنى الأقوى .
وانزعجت الفتاة بعض الشىء وتساءلت : ماذا تقول ؟ .. كنت تفضل فتاة متوسطة التعليم . . لا تحبنى إذن . . .
ــ لا أعنى بكلامى ما بدر إلى خاطرك . كل ما أردت قوله إن الرجل يمكن أن يحب فتاة أقل منه مستوى فى التعليم أو العمل أو الكسب ولكن المرأة لا يمكن أن تحب رجلا أقل منها فى التعليم أو العمل أو الكسب .
وحدقت فيه ثم قالت : إذن لا ترضى أن تعمل إلا بمرتب يفوق مرتبى ..
ــ هذا هو تماماً . . لقد عرضت على أعمال كثيرة ولكننى رفضتها لأنها فى مستوى عملك . أريد عملا أكبر . .
ــ أنت تفكر بطريقة مقلوبة . . .
ــ بل أفكر بطريقة صحيحة . . أنت الآن فى نشوة الحب والزواج . بعد قليل ستبدأ مشكلات الحياة فى الظهور .
ــ أنت لا تقدر عواطفى ، إننى أحبك . .
ــ وأنا أفعل هذا لكى أحتفظ بحبك .
ــ كى تحتفظ بحبي هل لا بد أن تكون أفضل منى ؟

ـ هذا تعبير غير دقيق . . لست أفضل منك ولا أريد ، ولكننى أريد أن أكون أقوى منك عقلا وتفكيراً وعلماً وكسباً . .

ـ هذا التفكير ميراث نظم قديمة .

ـ لا دخل له بالنظم . . إنه يرجع إلى طبيعة المرأة . . والمرأة تحب الرجل الأقوى .

ـ هذه حقيقة لا أنكرها ولكنها ليست طبيعة لا يمكن تغييرها . . لقد نشأت من النظم القديمة التى وضعت المرأة دائماً فى وضع الإنسان المعتمد على الرجل مادياً وأدبياً والآن ذهبت فكرة الأقوى والأضعف.

ـ أشك فى هذا ، فنى البلاد التى بلغ التطور فيها مداه وتساوت المرأة بالرجل فى كل شىء لا تشعر المرأة بالحب الصحيح إلا للرجل الأقوى .

ـ وكيف يكون الامتياز بالقوة مع التساوى فى الحقوق .

ـ يكون الامتياز فى نطاق هذه الحقوق ذاتها . . فى التعليم يوجد العقل الناضج المتفوق والعقل الأقل نضجاً وتفوقاً وفى العمل كذلك يوجد العامل المبدع المتطلع والعامل الأقل إبداعاً وتطلعاً . . إنها طبيعة فى المرأة لن تغير منها النظم والحقوق شيئاً .

ـ أنت لا تؤمن بالتطور إذن . . تؤمن ببقاء الغرائز والطبائع على حالها أو بإمكان بقاء بعضها على الأقل . .

ـ كلا أنا من أشد الناس إيماناً بالتطور فلا بقاء لشىء على حاله حتى ولو كان غريزة أو طبيعة ولكن التطور فى بعض الغرائز والطبائع يكون فى الأسلوب والمستوى ، وليس فى جوهر الطبيعة أو الغريزة . . كانت المرأة فيما مضى تعجب بقوة الجسد وتناسب العضلات ، حينما كانت القوة البدنية هى سبيل التفوق فى المجتمعات البدائية ، فلما ارتفعت هذه المجتمعات تحول الإعجاب إلى القوة العقلية وتفتح الذهن والقدرة على الخلق والإبداع . . وأسألك الآن لماذا آثرتنى أن أكون زوجك ؟

ــ لتفوقك العقلى . .

ــ هل تحسين أنى أقوى منك عقلياً وذهنياً . .

قالت : هل لابد أن أعترف بأنك أقوى . . ألا يكفى أن . .

ولم يدعها تتم جملتها وسارع قائلا : أرأيت . . أنت تعملين وأنا بعد لم أوفق إلى العمل الذى أريد .

وقاطعته : أنا واثقة أن إنساناً متفوقاً مثلك لابد أن يجد العمل المناسب له . . نتزوج أولا . . .

ــ كلا لا أرضى وأنت بينك وبين نفسك لا ترضين .. أنت تتعطفين على وأنا أكره العطف وخاصة من المرأة التى أحبها . يجب أن يكون العطف منى أنا . . الأقوى .

واقتربت منه مغمضة العينين وقالت : أنت تأسرنى . . تجعلنى أشعر كم أنا ضئيلة . . كم أنا سعيدة . . خذ رأسى على صدرك . . دعنى أشعر بهناء الراحة ، هناء الملاذ الأمين .

ووضع رأسها على صدره وأدنى وجهه من وجهها وهمس فى أذنها : هذا هو ظل الرجل على المرأة .

أنا شيء والمجتمع شيء آخر

سألها : وما هي نهاية هذا الحب ، إنه بلا أمل . .

قالت : إن الحب ذاته نهاية ، إنه غاية : أنت تنظر إليه كوسيلة . وأنا أعيش فيه كآخر المطاف .

قال : هكذا دون اتصال ، دون عيشة كاملة ، دون أولاد ، دون بيت .

قالت : لا أفكر فى شيء من هذا ، إنى أحب وكفى .

قال : ستسأمين الحب .

قالت : لن أفعل . إن النظرة فى عينيك متجددة . حديثك يبعث فى نفسى الدفء . . منذ عشر سنوات ولم أسأم ، من يدرى لو تزوجنا ماذا كان المصير يكون ؟

قال : إذن أنت تخافين على الحب من الزواج .

قالت : ليس هكذا بالضبط . إن الحب عندى شيء متكامل . وهو عندك شيء ناقص يكمله الزواج . . هل أدركت الفرق ؟

قال : لم أسمع هذا الرأى من قبل، كل من يحب يفكر فى الزواج..

قالت : وإذا لم يكن مستطاعاً ، هل نقتل الحب ؟

قال : هذا شيء آخر . لقد قلت الآن إن الحب شيء متكامل . ومعنى هذا أنك ترفضين الزواج بمن تحبينه ، حتى ولو كان الزواج مستطاعاً .

قالت : هذا هو ما قصدته . إنى أخاف من زوابع الزواج على هذا النبت الرقيق العذب ؟ ماذا ينقصك ؟

قال : ينقصنى أنت ، ينقصنى أن تكونى فى بيتى وأماً لأولادى .

قالت : هذا الذى ينقصك هو الذى يغذى نبات الحب . إنه

لا ينمو ولا يعيش إلا فى الحرمان ، وإنى لأسألك كم عدد الذين تزوجوا ثم دام الحب بعد الزواج ؟

قال : لا أستطيع أن أجيب ، ليست لدى إحصائيات . .

قالت : أنا لا أطلب منك إحصائيات. اذكر معارفك ممن تزوجوا بعد حب ، وأجب .

قال : ولكنى أريد أن أكون أباً ورب بيت .

قالت : تزوج بمن تشاء ، إننى لا أمنعك .

قال : ومع ذلك تزعمين أنك تحبيننى .

قالت : بل لأننى أحبك أقول هذا .

قال : وأنت أتنوين الزواج ؟

قالت : طبعاً .

ودهش الرجل وهو ينظر فى عينيها الحالمتين وقال : أتعنين ما تقولين؟

أجابت : بعد أسبوع ستعلن خطبتى .

قال ثائراً ساخطاً : أنت تلعبين بعواطفى . إنك تحرقيننى . أنت تتلهين . . أنت فتاة شاذة . سأحول دون هذا الزواج بكل ما أستطيع .. لن تكونى لرجل آخر .

قالت فى هدوء : هذا صحيح ، لن أكون لرجل آخر ، ولكنى سأتزوج رجلا آخر . .

قال وهو يكاد يحترق من الغيظ : إننى لا أفهمك .. لأول مرة أشعر أنك غامضة . . أنك تتكلمين كما لو كان كلامك ألغازاً .

أجابت : ليس هناك ألغاز . إن الحب الذى أريده ، هو الحب الذى يثير الزوابع والغيظ والخوف والقلق واللهفة ويكون الحرمان عنصراً فيه . تصور لو أنى وافقت على الزواج منك ، ماذا كان يحدث ؟

قال : ما يحدث فى كل زواج .

قالت : وهذا ما لا أريده . ستأخذنى بين ذراعيك ، ستضمنى إلى صدرك . ستملكنى ، وبعد أيام أتحول إلى شيء عادى . شيء تراه كل يوم وقد تضيق به .

قال : ولكن هذا هو ما يفعله الناس .

قالت : وهل هم سعداء ؟

قال : فيلسوفة أنت أم امرأة تحب ؟

قالت : بل امرأة تحب وتخشى على حبها أن يموت . إنى أدافع عنه فى وجه كل إنسان ، فى وجه المجتمع ، فى وجه التقاليد ، فى وجه السخافات التى لا حد لها والتى تفسد كياننا وحياتنا وتجعلنا مخاوقات مملة تافهة تأكل وتشرب وتنام وتنجب الأولاد ، ثم تموت .

قال : كأنك لا تنوين أن تموتى .

قالت : سأموت ، ولكننى أريد أن أعيش ولا أستطيع أن أعيش فى برود . إن الحب هو حياتى الحقيقية وليس الزواج . سأتزوج كما آكل وأشرب وأذهب إلى السينما وأشترى فستاناً وأعقد صفقة . سأبحث الأمر فى هدوء .

وشعر الرجل كأن خنجراً مسموماً يدخل قلبه وقال : أنت لا تحبين إلا نفسك . إنك تريدين الحب رمزاً لاقتتال الرجال عليك ، تريدين أن تعذبى إنساناً وتخدعى إنساناً .. تريدين أن ترضى نزواتك ولا شيء آخر .

قالت : لن أخدع أحداً . إن زوجى المنتظر لا يحبنى . لقد جاء يطلب زوجة . وبحث الأمر بعقله تماماً كما أبحثه . يريد زوجة جميلة غنية متعلمة تنجب له أولاداً وتؤثث له بيتاً . لن أقول له إنى أحبه ، كما لن يقول لى ذلك . ولو قال فلن أصدقه . لقد رأيته مرة واحدة ، مرتين ، وكان الحديث عن الخطبة والزواج والأسرة والأولاد والبيت . . هل هذا حب ؟ هذا زواج ، صفقة ، عمل يرضى عنه المجتمع ويباركه ، ولا دخل لى بالمجتمع ، إنه شيء وأنا شيء آخر . .

تجربة لم تصادفه

قال لها : عيناك لم أر سحراً مثلهما .
قالت : هما اللتان جذبتاك إلى . . .
قال : هما وغيرهما . . إننى أحبك ، وسأظل . . .
وسألته فى مكر وإغراء : حتى ولو لم أكن أحبك . . حتى ولو عدلت عن حبك فى يوم من الأيام .

وسكتت بينما افتر ثغرها عن ابتسامة غامضة ساحرة . . وتأملها الرجل وهو مشفق على نفسه من هذه الفتاة العجيبة التى حيرته . . لماذا يرتبك أمامها وهى ليست أكثر جمالا من غيرها ولا أكثر ثقافة ولا أكثر ذكاء . إنها لغز . . لغز محير . . وأفاق من تأملاته مسرعاً وحاول أن يدنى أذنها من فمه لكى يهمس فيها ، ولكنها ردته فى رفق وابتسام وقالت : تكلم أنا أسمعك .

ورأى أن ينقل المعركة إلى جبهة أخرى . . إنها تهاجمه . . ترتاب فيه وتعرف الكثير عنه ، فيما يبدو ، فلماذا لا يهاجمها هو . . لماذا لا يسأل ويكون عليها أن تجيب . . قال فى مكر مماثل لما تصوره من مكرها : إنك تسأليننى ، كما لو كنت مجربة . . إننى أخاف المرأة المجربة !

ولم تشأ أن تفقد ميزة المبادأة وأدركت حيلته فى نقل المعركة وقالت فى هدوء : الذى يخاف المرأة المجربة رجل ضعيف . .

واستثارته العبارة واستثاره الوصف وبدا عليه الغضب ، وشعر أن المرأة انتصرت عليه بمكر أشد من مكره . ها هى ذى الآن ترميه بأنه رجل ضعيف ، هل هو ضعيف حقاً؟ ومر شريط طويل سريع خاطف من للفتيات للاتى عرفهن وأحس إحساساً مبهماً أن كلامها عن ضعفه

يمكن أن يكون صحيحاً ، وأخذ هذا الخاطر يتسلل إليه طاغياً مدمراً، ولكنه أوقفه حتى لا ينهار أمام هذه الشيطانة . . وسرعان ما اكتسى وجهه بسمة ساخرة واصطنع شيئاً كثيراً من الهدوء . . وقال : أنت مجربة إذن ؟

أطلقت ضحكة فيها إغراء وغموض وسخرية ، فهي امرأة ناضجة فاهمة معتدة بأنوثتها أمام رجل لمحت تماماً أنه يتهاوى ، وأن زمامه أصبح بين يديها وقالت : هربت من السؤال . . لنسلم أنني مجربة فلماذا لا تنتصر بتجربتك على تجربتي . . ثم لا تنس أن المرأة المجربة أثمن فى موازين النساء من المرأة الخام .

وسكتت لحظة ثم استطردت مسرعة : ولكن لماذا لا تكون الغريزة الصحيحة مساوية للتجربة الكبيرة . . هل لا بد من التجربة للمرأة حتى تعرف الحب الصحيح من الحب الزائف.. ألا يمكن أن تعرف بإحساسها ، بغريزتها ، بصدق فراستها ؟

قال وهو يزداد شعوراً بالضعف : التجربة ضرورية لاستكمال لمحات الغريزة .

قالت وهى تشعر بأن القوة فى جانبها : ولكن ماذا تعنى بالتجربة ؟

قال فى سرعة : أن تكون المرأة عرفت رجالا آخرين .

سألت فى هدوء : وماذا تعنى بالمعرفة ، هل هى التى سعت إليهم ، أم أنهم هم الذين حاولوا إغراءها .

أجاب : الأمران سواء .

ــ حسناً . . وهل لابد للتجربة أن تبلغ غايتها . . ألا تكفى مثلا محاولات الإغراء . . وما هو حادث بينى وبينك الآن . . هل تعده تجربة ؟

ثم استطردت : إذا تكرر مثل هذا بالنسبة لى مع آخرين وتكرر بالنسبة لك مع أخريات ، تعد أنت وأعد أنا فتاة ذات تجربة .

أجاب فى تردد : نعم .

هاجمته بسؤال سريع : وهل تنكر أنك حاولت مثل هذا مع أخريات ؟

وفى قوة طارئة واجهها هو الآخر بسؤال مشابه : وهل تنكرين أنه حدث لك مثل هذا مع آخرين ؟

وقال : أجيبى أنت أولا .

قالت : أجب أنت أولا . . أنت رجل والمفروض أن مثل هذه التجارب لاتشينك .

سكت مضطرباً متلعثما ولم يعرف كيف يجيب .

ضحكت الفتاة فى اعتزاز ، وقالت : أنت جبان وأنا لا أحب الرجل الجبان . . لأكن أنا أشجع منك فأقول لك إنه حصلت لى تجارب عديدة مع رجال مثلك . . حاولوا أن يغازلونى و يصلوا إلى قلبى بإطراء جمالى .. وكان بعضهم صريحاً فقال إنه يحب جمالى و إنه أخذ به ولكنه لا يعرف إذا كان يحبنى أم لا . . وشكرت لهم صراحتهم واحترمتهم ولكنى لم أحبهم . وأكد لى آخرون أنهم يحبون جمالى ويحبوننى وإنهم يعجبون بخلقى وسلوكى وفهمى وذكائى ، وعند ذلك سألتهم السؤال الذى أطرحه عليك أيضاً : هل تحبنى مثلهم أو مثل الصنف الأول .

أجاب من غير تردد : بل أحب جمالك وأحبك وأعجب بخلقك وذكائك وسلوكك وفهمك .

وابتسمت الفتاة فى سخرية وإغراء وضعف قوى . وقالت : وسأوجه إليك السؤال الذى وجهته إليهم .

وازداد اضطراباً ، ولكنه لم يجد وسيلة إلا أن يسكت انتظاراً للسؤال.

واستطردت الفتاة وهى تعبث بخصلات من شعرها قالت : وماذا بعد؟

سألها : لم أفهم ماذا تقصدين ؟

أجابت فى هدوء وثبات : أعنى ماذا بعد الحب الكامل الذى تدعيه .

قال فى بلاهة : نحب بعضنا .
قالت : وماذا بعد ؟
قال : نستمر فيه .
ــ فى ماذا ؟
ــ فى الحب . .
سكتت الفتاة برهة ثم قالت : أنا فتاة جميلة ذكية قوية الفهم حسنة الأخلاق لا تستطيع أن تستغنى عنى ، هذا هو كلامك . . أليس كذلك . .
أجاب : نعم .
قالت : وماذا تشترط فى زوجتك المقبلة ؟
تهاوى الرجل وانكمش ، وأحس أن صاعقة نزلت عليه فألجمت لسانه . . وقال وهو متلعثم : تتحدثين عن الزواج إذن ؟
سألته : وأنت عم تتحدث ؟
أجاب : عن الحب .
سألته : وهل هناك تنافر بين الزواج والحب ؟
قال : لا يوجد تنافر . . ولكن هذا ليس موضوعنا .
ــ موضوعنا إذن تجربة تضيفها إلى تجاربك .
ــ أنا أحبك !
ــ أنت كاذب . .
ــ أقسم . . .
ــ لا تقسم .
ــ أنت فتاة عجيبة .
ــ بل فتاة فاهمة . .
ونهضت فى تصميم وقالت له : هذه تجربة ما أحسب أنها صادفتك.

المكاشفة

قال لها : ما يزال هواك مع صاحبك القديم . .

قالت : بل معك أنت وحدك . . أما هو فله عندى حرمة الوفاء للذكرى .

ــ كيف يموت الحب وتبقى الذكرى ؟

قالت : إنه لم يمت ، لا يوجد شيء فى الحياة يموت . .

ــ أتقابلينه ؟

وأجابت فى وجه كسيف مذنب : نعم . . .

ــ وتبادلينه كلمات الحب ؟ . .

ــ هو الذى يقول . . .

ــ وأنت ؟

ــ مجرد مستمعة . . لا أستطيع أن أقول شيئاً لا أحس به . . أنت لا تعرف هذا الرجل ، إنه يبدو أمامى طفلا . . أنا أم له . . معه أيضاً لا أفكر إلا فيك . . .

ــ امرأة مزدوجة الشخصية !

ــ قل ما تشاء . . أنا التى أسأت إليه ، إنه لا يزال يحبنى يقول : «لو تركتنى فسأموت ، لا تتخلى عنى » لا أريد أن أكون قاتلة . . لو عرف أننى لم أصبح أحبه فسيموت . .

ــ أنت منافقة . . .

ــ النفاق قد يكون فى كل شيء إلا فى الحب . .

ــ أنت بقدرة قادر حققت النفاق فى الحب . .

وقالت فى هدوء : تقبلنى كما أنا ، لا أستطيع أن أسيء إلى من لم يسئ إلى . . .

ونظر إليها فى تأمل وقال : ليس ما بك حبا . . أنت لاتحبين ، تطبيقين قواعد الأخلاق .

سألته : وهل الحب ينافى الأخلاق ؟

وأوقعته فى حيرة ، وسكتت فترة ثم سأل بدوره : وهل من الأخلاق أن تحبى شخصاً آخر غير من أنت مرتبطة معه بالحب ؟

وأحسست بذل وهى تقول : لا يدلى فى عاطفتى . .

ولاح له أنه أصبح سيد الموقف وقال : إما أن تكون العاطفة حرة وإما أن تكون مقيدة بقواعد السلوك والأخلاق .

ـ العاطفة الحرة مجنونة . . لا بد لها من رابط أخلاقى . .

ـ حسن ، أنت أسأت إلى الأخلاق بتركك لصاحبك وأسأت إلى الأخلاق مرة أخرى فى احتفاظك به . هذا تناقض . . هل لديك حل لهذا اللغز .

ـ ليس فى الأمر لغز . الأخلاق تخفف من جموح العاطفة ولكنها ليست إطاراً لها ومن يدرى لعلنى لم أحبه أبداً . لعل ما كان بيننا مجرد عطف متبادل اتخذ صورة الحب . كنت غريرة فى حاجة إلى الحنان وأعطانى الحنان فحسبت أنه الحب . . هذا هو تصويرى للموقف . .

واستشاط غضباً وقال : ومن يدرينى أنك بعد قليل أو كثير تكتشفين أن ما بيننا أيضاً ليس حبًّا ، وأن عاطفة ثالثة تبدو لك كأنها الحب ، حينئذ سيصبح عليك واجب أخلاقى مضاعف . . تحتفظين باثنين تمثلين معهما دور الحب ، وتعيشين مع ثالث تجربة حقيقية . .

وردت فى برود : من يدرى لعل هذا يحدث . . إننى لا أفهم نفسى جيداً . . هل تفهمها أنت ؟ كل ما أحس به أننى لا أستطيع أن أستغنى عنه ولا عنك . لقد كنت أمينة معك . أفضيت إليك بالحقيقة كان فى استطاعتى أن أخفيها عنك .

ــ وهل أفضيت له هو أيضاً بالحقيقة ؟
ــ كلا ، حجبتها عنه . . .
ــ هذا تصرف غير أخلاقى . . .
ــ أعترف أنه كذلك . إن ما فى نفسى له وفاء واحترام لذكرى .. افهمني . . . إننى أحبك . . . أحبك أنت . .
وفرت من عينيها الدموع ،وهمهمت : أنت قاس . . لا تفهم عواطف المرأة . كشفت لك نفسى لأننى أشعر أننى أحبك وحجبتها عنه لأننى لم أعد أحس له بالحب . والحب هو المكاشفة . . كنت أظنك أوسع أفقاً ، إن الذى يحب يتسامح . . . يغفر .
وسكتت ريثما مسحت دموعها ، واستعادت هدوءها واستطردت : أنت لا تعرف ماذا صنعت . . حاولت أن أتخلص منه ، ولكنه تشبث بى وبكى بين يدى كالطفل .. ألم أقل لك إنه يعطينى الشعور بالأمومة ..
وأحس نحوها بالرثاء وقال : أنت تعسة ضائعة لا تعرفين نفسك. ليس لعواطفك استقرار ، ما زلت مراهقة . . .

وعذبها الوصف وسألته فى ضراعة : أترانى كذلك ، أليس فى مقدورك أن تستولى على أكثر . . أنت لم تقل لى قط إنك تحبنى وهو يملأ أذنى بحديث كنت أتمنى أن أسمعه منك أنت .. حقاً إننى تعسة . الفم الذى أريده أن ينطق بالحب لا ينطق والفم الذى أريده أن يسكت عنه لا حديث له إلا عنه . . أنت تضيعنى .. دعنى أواجهك بالحقيقة ، أنت لاتحبني ، ولو كنت لكففت نفسى عنه وعن كل الناس .
ــ احتياطى « استبن » . . المسألة ليست مسألة أخلاق إذن .
وضحك فى سخرية بينما ازدادت دموعها انهماراً ثم تمتمت : أنت الذى أحبه ولكنك . .
وشرقت بدموعها وسكتت ، ثم انطلقت فجأة : بل هى أخلاق أيضاً

إننى مشدودة فى حبل له طرفان ، فى أحدهما عاطفة هوجاء عمياء لا أعرف لها، تحليلا ولا منطقاً وفى الطرف الآخر أخلاق أعرف حدودها وأحكامها . . ولك أن تتصور كيف يكون المشدود بين طرفين وأى عذاب يعانى . . أنت رجل . . اسكت .. انصرف عنى لا أريد أحداً.

وتركته مندفعة كالمجنونة . . قال لها : انتظرى . .

التفتت إليه فى غيظ وقالت : لن أنتظر . . .

ــ أذاهبة إليه ؟

قالها فى سخرية . . .

ــ بل ذاهبة إلى الجحيم . . سأكون منذ الآن امرأة من غير عاطفة ومن غير أخلاق ، امرأة تحكمها الرغبة وحدها .

قالتها فى سخرية وتحد وتصميم وانصرفت .

حقيقة لا شك فيها

الزهور كثيرة والعطور تملأ المكان والموسيقى تصخب ،الرقص يدور ، الساق مع الساق ورمش العيون مع بسمات الصفاء . وهمس الشاب فى أذن الفتاة : أسعدتنى . فما زادت على أن امتلأت عيناها بالشعاع . ودار بها هنا وهناك حتى انتحى بها مكاناً قصياً ، وهمس مرة أخرى :أحلى ليلة فى عمرى أعبدك . . . متى نلتقى ؟

وانتهى الرقص وجلسا ، الفتاة مبتسمة دون أن تجيب

قال لها : حيرتنى

قالت : ولم الحيرة ؟ . . .

ـــ أكشف لك نفسى فتصمتين .

ـــ إن من الصمت لجواباً . .

ـــ أفهم من هذا . .

وتوقف ، فسارعت تتم الحديث : افهم ما تشاء . . .

ونهضت منفلتة منه فى رشاقة . . حاول أن يستبقها ولكنها كانت قد مرقت فى الزحمة وجلس كسيراً كأنه وحيد بينما الصالة تموج . ودعته فتاة أخرى بإيماءة فذهب إليها .

قالت : لماذا تركتك ؟

واحتار بماذا يجيب وأنقذ الموقف متسائلا : من هى ؟

ولكن وجهه الممتقع لم يكن خافياً .

ـــ لا تعرفها ؟

ـــ من هى ؟

ـــ الفتاة التى كانت تراقصك . .

ـ آه . . أعرفها بالطبع . . لكن ماذا يعنيك من أمرها . .

ـ لا شيء سوى أنها لا تستحق الاهتمام

ـ وأنا أراها كذلك . . ترقصين معى ؟

وبينما كانا يدوران مع الموسيقى كان الشاب تائه النظرات يبحث عن صاحبته الأولى ولمحها مع شاب آخر يعرفه وهما يتحدثان فى انسجام وانطلاق . وامتلأ بالغيظ واضطربت خطواته فى الرقص ، وأدركت رفيقته موقفه . .

همست : إنها تشغلك ، لا تنكر . . ضايقك أنها تركتك . .

ـ وماذا يضايقنى ، كانت مجرد رفيق فى رقصة . . .

ـ إنها أكثر من هذا . .

قال وفى لهجته الملل : وأنت ماذا يعنيك فى الأمر ؟

ـ تتعلق بحبال دايبه ؟

ولم يفهم أو بدا أنه لا يريد أن يفهم ، وحاول أن يبدو مستهيناً بالأمر ، ولكنه لم يستطع قال مندهشاً :

ـ حبال دايبه . . .

وجاءه الرد فيه التشفى : تحب غيرك ، مشغولة !

وسكتت برهة ثم استأنفت كلامها الهامس : منذ وقت طويل أفكر فيك . .

ـ أنت ؟ . .

ـ نعم أنا . . .

وأصابتها خيبة مرة أن لم تلمح استجابة منه ورأت أن تثأر لنفسها فقالت ساخرة : نعم أنا . . ألا تصدق يا روميو . .

ثم تركته وانصرفت .

* * *

وعاد الشاب إلى بيته فى منتصف الليل وأخذ يراجع حياته وسأل نفسه لماذا انصرفت عنه الفتاة الأولى ولماذا سخرت منه الثانية . كان حتى

الآن غازى نساء من الطراز الأول فماذا دهاه ؟ هل العيب فيه أم العيب فى الفتاة وصاحبتها . . هل بطل سحره أم أن الفتاة وصاحبتها فوق مستواه؟

وأعاد النظر وأدمن التفكير ولم يوفق إلى جواب يرضيه فنام يائساً . أخذه النوم من دوامة لا تطاق .

* * *

فلما كان الصباح دق التليفون للفتاة الأولى قال : لماذا تصرفت معى بهذه الخشونة فى الليلة الماضية..

جاءه الصوت رزيناً هادئاً : هل ظننتنى كبقية الفتيات الفارغات..

قال : ولكننى لم أفعل شيئاً أستحق عليه اللوم . .

ــ اسمع إن للمسألة تاريخاً . .

ــ للمسألة تاريخ ! !

ــ نعم.كنت أحسن الظن بك وأراك شاباً جاداً طاهر العواطف على الرغم من كل ما سمعته عنك. وأكدت صديقتى أنك على العكس من ذلك، تغازل كل الفتيات وتحاول أن تعبث بهن. وتحديتها قالت جربى وكانت التجربة مع الأسف ضدك .

ــ ولكن هل المصارحة بالعواطف جريمة . . .

ــ لم تكن مصارحة بعواطف . كانت غريزة تحركك وأنت ترقص وتحركك وأنت تتكلم . كانت محاولة للإغراء . . لا يمكن بعد مرة أو مرتين ألتقى بك فيهما أن تعاملنى هكذا . . . هل تعرف معنى الحب ؟

ارتبك الشاب وجف ريقه : أعرفه حتماً . . شعرت به معك أنت.

ــ نفس الكلمات . . شعرت به مع كل واحدة (وضحكت ساخرة) أليس كذلك ؟

ــ أقسم . . .

ــ كلا لاتقسم.. لست آسفة لما فعلته بقدر أسفى لأننى وثقت فيك .

ــ ولكن .

ــ ولكن ماذا ؟ . . . تعلم أن تسمو بغريزتك وعاطفتك . لقد تعلمت وبلغت أرقى الدرجات العلمية ولكن عاطفتك لا تزال فى طفولتها . . . عاطفة الغابة ، الإنسان البدائى .. . هل تعرف أن النضج الذهنى شىء والنضج العاطفى شىء آخر ؟

وزادت حيرة الشاب وزاد فى الوقت نفسه احترامه للفتاة وأحس فعلا أن عاطفة جديدة تولد فى قلبه بل أحس كما لو كان يتطهر من ماضيه ويشرق عليه تفكير جديد ، وشعر بما هو أقسى ، شعركم هو ضئيل أمام هذه الفتاة هو الذى سيطر فى كل الأحوال . .

قال فى شبه خوف : أنت علمتنى درساً لن أنساه.. هل تحتقرينى ؟

ــ أنا لا أحتقر أحداً ، أنا أرثى لك ، أرأيت إلى التعلم كيف يوسع الآفاق ، ويعمق النظرة ويجعل للأشياء والأشخاص والحوادث أبعاداً جديدة لا يراها الجاهل ، كذلك النضج العاطفى يجعل للعاطفة أبعاداً وأعماقاً لا يحسها من لا تزال عاطفته فى طفولتها . . . أرأيت إلى التعلم يجعلك تنأى عن اللفظ النابى والعبارة الجافة والتصرف الخشن كذلك يفعل النضج العاطفى : لا يقبل التعبير الخشن ولا المغازلة الفجة ولا الحركة الجارحة ... وكل أولئك فعلته أمس فى نصف ساعة ، فى أقل من نصف ساعة . كان فى قلبى ميل إليك . . ليس على التحديد ميلا ، كان على الأقل صفحة بيضاء مستعداً أن يحسن الظن فيك ويراك خامة حسنة لرجل تنشده المرأة ، فكشفت كم كنت مخطئة . . والآن أقول لك إلى اللقاء . . أضعت وقتك ، سامحنى إذا كنت قد أسأت التعبير عن نفسى . .

ــ ستتركينى ، ولكننى أريد المزيد من حديثك . شعرت الآن أننى أمام امرأة جديدة، فتاة استطاعت أن تكشف فى نفسى ضعفها وفى عاطفتى طفولتها . أصارحك أننى دخلت فى عشرات العلاقات مع فتيات ،

ولكننى شعرت فى كل مرة بالضياع . . .

ـ لا يمكن إلا أن تأخذ بمقدار ما تعطى . لم تكن تعطى أى واحدة منهن عاطفة . . كانت مجرد رغبة فى اللهو وحديثك عن العاطفة كان مجرد ستار تخفى وراءه غرضك . . كان الطرق الخفيف الرقيق ليفتح الباب فإذا انفتح لم تجد شيئاً لأنك لم تحاول أن تعطى شيئاً .

ـ العيب فى الفتيات اللاتى استمعن لى . . .

ـ هل الضحية تلام والذئب يكون البرىء . . . لا تنزعج من تعبيرى .

ـ لم أكن أغريهن . . . كن يحمن حولى من غير إغراء . . .

ـ ما هو الإغراء الذى تقصده . . ألا تكفى الكلمة الرقيقة .. ألا تكفى الهمسة الحالمة ، ألا يكفى أن تقول للواحدة منهن إنى أحبك.. أحلى ليلة ، أسعد لحظة.. ألا يكفى أن «تسبل» عينيك وتحلم وأنت تضغط على اليد فى رفق وأن تمس الساق فى مغزى... كل هذا فعلته معى ... ألم يكن إغراء.. ألم يكن تمثيلا لا حقيقة له جرياً وراء رغبة لا شك فيها؟... كان يسعدك أن تختبر رجولتك وسحرك . . . ولكن صدقنى إن الرجولة شىء آخر ...

ـ أنت تبالغين ... هذه إهانة لا أقبلها .

ـ المريض يسخط دائماً ويتهم الطبيب .

وتولته فجأة ثورة من الغضب وقال غير واع وفى سخرية : وهل أنت الطبيب ؟ . . عالجى نفسك أولا ...

ولم يكد يتم حديثه حتى كانت السماعة قد ارتطمت بوجهه

* * *

وكاد يجن . طلبها مرة أخرى فلم ترد عليه ولم تزد على أن وضعت السماعة ، وتكرر الطلب والرفض . ولكن حديث الفتاة ظل يطن فى أذنه فيغضبه حيناً ويرضيه حيناً ، ولكنه فى كل الأحوال كان يؤكد له أنه الحقيقة التى لا شك فيها .

نتفق أو لا

قالت له : تتزوجني ؟
أقبل ولكن لنتفق أولا على الأساس ، على القواعد . . .
سأل وهو مندهش : أساس ، قواعد ؟
أجابت : نعم لا بد أن يكون كل شيء واضحاً . .
قال : ألا يصلح الحب أن يكون الأساس والقواعد جميعاً .. ألا تحبينني ؟
ــ أحبك ما فى هذا شك ، ولكن الزواج قضية أخرى غير قضية الحب .
ــ إنه أساسها .
ــ أنا معك أنه أساسها ، ولكن التفاصيل . .
ــ إذا اتفقنا على الأساس ، أصبحت التفاصيل لا قيمة لها .
ــ هذا كلام الحب ...
ــ وهل بعد الحب شيء ؟
ــ أشياء كثيرة . . الحب وحده لا يكفي . سامية ومحمود تزوجا بعد حب عنيف وبعد شهرين طلقها .. أنت تعرف قصتهما ... ومثل سامية ومحمود كثيرون ...
ــ أنت تفسدين قداسة الحب بهذا الكلام .
ــ كلا أنا لا أفسده ... أريد أن أحميه ...
ــ هو وحده قادر على حماية نفسه .
ــ الحب لا يحمي نفسه مما يحميه طرفاه .
ــ أنت تتحدثين بعقل وكان الأجدر بهذا الحديث أنا الرجل لا

المرأة .. يلوح لى أنك لا تحبينى . .

ــ أنا لا أحب باندفاع ، أحب بتعقل .

ــ وهذا عندى ليس حباً .. أنت تعقدين صفقة .

ــ ليس الأمر كما تظن . الزواج شركة ، معاملة أبدية ، حياة كاملة فيها الحب وغير الحب . .

ــ وماذا غير الحب ؟

ــ فيها المعاملة ، فيها الأولاد ، فيها المستقبل ،فيها الضمان ألا تتركنى ؟

ــ هل يعقل أن أتركك وأنا أتزوج عن حب .

ــ العواطف تتغير ، القلوب لا تثبت ، الحياة مليئة بالمتناقضات ..

ــ الذى يحب لا يفكر على هذه الصورة .

ــ ولكن الذى يتزوج لا بد أن يفكر هكذا .. أنت الآن لاترانى إلا لماماً ... فترة قصيرة وتذهب إلى حالك وأذهب إلى حالى وليس بيننا شيء سوى عواطف رقيقة وأشواق وأمانى وأحلام ، ولكن بعد أن تتزوج سأراك وترانى كل يوم.. ستذهب اللهفة والأشواق ويحل محلهما الخلاف فى وجهات النظر ، فلسفتك فى الحياة وفلسفتى ، شخصيتك وشخصيتى أخلاقك وطباعك .. لا تحاول أن تتجاهل الموقف .

ــ أنا أحبك وكفى . .

ــ وأنا أرى أنه لا يكفى .

ــ لم نتفق ، يحسن ألا نتزوج . . .

ــ إذن نفترق . .

ــ كنت تحبينى من أجل الزواج ؟

ــ أنت لماذا أحببتنى ؟

ــ طبعاً من أجل الزواج .

ــ ماذا يضايقك إذن ؟

ـ يضايقني أنك تضعين شروطاً . .
ـ نحن نبني حياة جديدة ، والبناء الجديد لا بد له من أساس . .
ـ لا أفهم هذا الكلام . .
ـ أرأيت ؟ اختلفنا قبل أن ندخل البيت فماذا يحدث بعد أن ندخله . . خير أن نفترق صديقين .. أنت لا تصلح للزواج ..
ـ بل أنت التي لا تصلحين له .
ـ سواء كنت أنا أو أنت غير الصالح ، المهم أننا لم نتفق . .
ـ حرام أن تبددي حلماً جميلا بهذه البساطة . .
ـ الأحلام لا تثبت أمام الحقائق .. فكر في الأمر بعقلك أيضاً .

سأدع لك الفرصة . وآمل أن أتمكن من العودة إلى استكمال هذا الموضوع في فرصة قريبة والإجابة عن بقية الأسئلة .

التلميذ المبتدئ

قالت وهى تمضغ أحزانها : أعطنى الحنان . . لست فى حاجة إلى الحب .

أجاب : كل امرأة تقول هذا ، ولكن ما هو الحنان ؟

ـ صدر يعرف ويغفر ويصبر ويرضى . . يشارك فى الحزن والمسرة ..

ـ وما هو الحب ؟

وانصرفت عنه ولاذت بصمت رقيق . . وأضاء وجهها الحلو شعاع من الشك والخوف . . ثم قالت : الحب . . أخشى أن أقول لك إنه غير موجود . . .

ـ عرفيه أولا . . . ما هو الحب ؟

ـ حتى تعريفه أعجز عنه ، إنه عندى شىء أوسع من المعرفة ، وأجمل من الحنان . وأصفى من قلب ملاك .

ووضع يده على كتفها فى رفق وقال : انزلى إلى الأرض .

قالت : وهل حلقت فى السماء ؟ . .

ـ أزيد تعريفاً لحب الأرض .

ـ وهل الحب نوعان : سماوى وأرضى ؟

ـ الخلود فى السماء والزوال فى الأرض . . .

ـ الحب عندى خالد فهو لمسة من السماء .

وسألها : ما هو الخلود ؟

واحتارت بماذا ترد ، وزمت شفتيها وقالت ، كأنها تقذف إليه الكرة : ألا تؤمن بخلود الحب ؟

قال : أسأل أولا ما هو الخلود ؟

أجابت فى ضيق : شىء لا يموت .

ـ وهل فى الدنيا شىء لا يموت ؟

واستشاطت غضباً وسألت : عيبك أنك تفلسف الحياة . . كل شىء عندك مادى لا بد له من سبب ونتيجة وبداية ونهاية . . . دعك من نزعتك التحليلية هذه . . دعنى فى أوهامى إذا كنت أحسب الحب خالداً فلماذا تحاول أن تقنعنى بأنه ليس خالداً . . أترك لى جنتى حتى ولو كانت خيالا من الخيال .

ـ ستصدمين إذا عرفت الحقيقة . . .

ـ ولماذا لا أستمتع بالخيال إلى أن تصدمنى الحقيقة . بالله دعنى من حقائقك . . هل نحن نقرر معادلة رياضية ؟

وسكتت برهة ثم قالت : ولكن خبرنى ما هى الحقيقة ؟

وأعجزه السؤال فحاول أن يهرب منه : وهل الحقيقة فى حاجة إلى تعريف ؟

تحدته قائلة : أنا موجودة الآن فأنا حقيقة ، فإذا مت لم أصبح إلا خيالا أو ذكرى ، أين الحقيقة ، حقيقتى ؟ ستقول لى كانت موجودة وسأقول لك كانت حياتى وهماً . . وإلا فما هو الدليل عليها ؟

وسارع قائلا : إذن ليست فى الدنيا حقائق . والحب نفسه ليس حقيقة . .

أجابت : هو حقيقة ما وجد . .

ـ إذن هو يموت . . ليس بخالد .

واستدارت نحوه وقالت : عدت إلى فلسفتك . قلت لك دعنى فى أوهامى . .

وأطبقت شفتيها وعينيها ثم قالت : أنت تغالط . . قلت لك منذ

البداية : لا أريد الحب . . أريد الحنان .

ــ ولكن الحنان يبذل لكل الناس والحب يبذل لإنسان واحد .

ــ أنا عندك كبقية الناس ؟

ــ هذا ما تريدينه . . .

ــ ولكنى . . .

ثم توقفت ورنت إليه بعينين فيهما فيض من النداء وفرت دمعتان مكتومتان من عينيها .

قال : أراك سكت . .

اغتصبت الألفاظ اغتصاباً وقالت : لأنك جعلتنى كبقية الناس ..

ــ إذن تريدين الحب وليس الحنان ؟

ــ افهم ما تشاء . . أنت تضايقنى .. سأنصرف . .

ــ على أن تعودى ...

ــ لن أعود ...

وقال فى ارتياع : ولكن لماذا ؟

وهزت رأسها وقالت : لست أدرى ، شبت فى نفسى رغبة عجيبة مفاجئة أن أنصرف الآن ... أن أهرب ... وألا أعود . كرهت الحب والحنان ... كرهت الرجال ، كرهت نفسى .

وقال فى تصميم وهو يودعها : ستعودين .

وكادت تلطمه وهى تقول : هكذا ببساطة تتركنى أنصرف . . .

أجاب فى سذاجة : ولكنك تريدين الانصراف ...

ــ أنت لا تفهم شيئاً عن نفسية المرأة ... لماذا تطيعنى ؟ .. لماذا لا تشد يدى فى عنف وتقول اجلسى هنا .. لن أدعك تنصرفين .

ــ إذا فعلت هذا كنت قاسياً خشناً أجبرك على ما لا تريدين ... هكذا قلت حينما لاح لى ذات مرة أن أكون عنيفاً معك .

ـ لأقل ما أشاء ... ولكن ، افعل أنت ما تشاء .. ألا تفهم .. ؟
ـ أؤكد لك أننى لا أفهم شيئاً .
ـ إننى أكره الرجل الذى يطيع المرأة .
ـ وتكرهين الرجل الذى يجبرها على أن تفعل ما يشاء .
ـ من قال لك هذا ؟
ـ أنت . . .
ـ عدت إلى غبائك ... قلت لك دعنى أقل ما أشاء ... هل تصدقه ؟
ـ كنت أفعل . .
ـ منذ الآن لا تفعل . . .
ـ تكذبين إذن ؟ . .
ـ أنا لا أكذب وكل ما أقوله صحيح .
ـ إذن لماذا تريدين أن أصدقه . . .
ـ لأنه غير صحيح . .
ـ عقلى يكاد يطير . .
ـ لا يطير ولا حاجة . . أنا أقول لك ما أعتقد أنه صحيح ، ولكننى أريد منك أن تقف فى وجهى . . أن تجعلنى أشعر بأننى تحت سلطانك.
ـ سخرت منى ذات مرة حينما قلت لك هذا ...
ـ لا بد أن أسخر ، ولكن لابد لك أن تتجاهل سخريتى .
ـ فهمت . . . .
ـ أخيراً . . . .
ـ اعذرينى فإننى مبتدئ فى العلم . .
ـ أى علم ؟
ـ علم المرأة . .

ـ وهل المرأة علم ؟

ـ أصعب علم . .

قالت وهى تخطو نحو الباب . أنا منصرفة . . منصرفة ولن أعود . .

وتردد ماذا يصنع ، وصرخت فى وجهه : أنا منصرفة ولن أعود . .

ومد إليها يده مودعاً ، فقذفته بحقيبة يدها ، وانصرفت . .

ولم تعد .

صلاة

قالت له : أنت تعرف الكثير عنى ، حكيت لك قصتى كاملة ، ولا بد أنك كنت تشفق على وترثى من أجلى ، أنا نفسى كنت أشفق على نفسى وأرثى لها ، وتسألنى الآن كيف حالى فأقول لك إننى سعيدة ... سعيدة جدا .

وتأمل وجهها . . كان هادئاً رقيقاً فيه سحابة غامضة وعليه مسحة أقرب ما تكون إلى القداسة . . .

قال : أتعبك طول الجمود ، أويت إلى عش . . .

قالت : كلا ، ولكننى سعيدة . . .

ـ صلاة وصيام وإيمان إذن .

ـ ولا هذا أيضاً . . .

وتوقفت و برقت عيناها ثم استدركت : نعم صلاة وصيام وإيمان ، أنا عابدة فى محراب .

ـ وتجدين الهناء الذى افتقدته . .

ـ وأكثر من الهناء . . . . هل عندك كلمة تصف ما أنا فيه الآن ... أحياناً أشعر أننى عاجزة عن وصف ما أحس به... الله جميل .. هل فى هذا شك ، أننى أحبه ... أحبه فى شخص رجل ؟

ـ ليس صلاة وصياماً إذن . . إنه حب .

ـ أنا أعبد الله فى الحب . أصلى الآن وأصوم ، ومن قبل لم أكن أعرف الله . بعض الناس يعرفون الله عن طريق نعمائه التى أنقذت من كارثة أو كانت فيضاً من الهناء يغمر الخاطر . . إن الله عظيم عظيم جداً . . أعطانى النعمة . أنت تعرف أننى قضيت شطراً من حياتى أنشد الحب ، أن أجد رجلا يستحق طهرى وصفاء نفسى وتضحيتى ..

كانت خيبتى مرة فى كل الرجال الذين قابلتهم . كنت أحياناً أركع بين يدى الله أعتب عليه أن كل من خلقهم كاذبون منافقون ثم أقول . . . كلا يا إلهى إنك عظيم جميل رائع ولا بد أنك خلقت كثيرين على مثالك هبنى واحداً منهم . واستجاب الله لصلواتى .

ـ والآن . . .

ـ أشعر أحياناً كأن الله فيه ، إننى أعبده ، ولا أتضايق من أى امرأة يعرفها . . هل تتصور هذا . . قد أكون مجنونة . إننى أعطيه الحب لأننى أعرف أنه يسعده . ولا يهمنى إذا كان يحبنى أم لا . أشعر أحياناً أنه لا يستحق هذا الحب ، ومع ذلك أحبه أكثر . هل هو شذوذ أم ماذا . ؟ لا أدرى .. ألم أقل لك إننى أعبد الله فيه . إن الكارثة تأتى لنا أحياناً من السماء فلا نفقد حبنا لله ولا إيماننا به ونركع أمامه نرجو المغفرة من ذنوب لا نعرفها . أحببت صديقه فسأل : لماذا هذا الاهتمام به ؟ قلت : إننى أحبك فلا بد أن أحب كل من تحبهم . . التراب الذى تمشى عليه ، الهواء الذى تتنفسه . . الأزهار التى تقع عليها عينك .. كل الأزهار . . فقد تقع عليها عينك . . كل التراب فقد تمشى عليه ... كل الناس ، فقد تعرفهم وتتحدث إليهم .. كل الدنيا التى تعيش فيها .. الله الذى أوجدك وأوجدنى .. ومنحنى السعادة كلها .

ـ إنه ليس حباً .. إنه عبادة للحب . . . عبادة الله ...

ـ سمه كما تشاء ، وماذا تعنينا الأسماء . أعرف أنه غائب ومع ذلك أطلب رقم تليفونه وأتركه يدق ولا أحد يرد ومع ذلك فأنا سعيدة . إنه الصوت الذى يناديه ، إنه التفكير فيه ، والانتظار له . هل تتصور أن الانتظار عندى سعادة ، مجرد الانتظار ، بل إن الانتظار أجمل ، أشبه عندى ببزوغ القمر فى جلاله وروعته . . إنه الأمل فى اللقاء .. وأنا معه ، هل تتصور ، أريد أن يقف الزمن ويتجمد ونصبح قبل الأزل

أو بعد الأبد ، لا نتحرك ولا يتحرك ، لا نحس ولا يحس . طول عمرى لم أكن أثق فى الرجال . . كيف وثقت فى هذا الرجل ؟ . . لا أدرى . . .

ــ أنت لم تثق فيه .. أنت آمنت بالحب. الثقة هنا بالشيء وليست بالشخص .

ــ ربما كان كلامك صحيحاً ، ولكننى سعيدة . . سعيدة بالحب .

ــ ألا يمكن أن تتغيرى أو يتغير . .

ــ أنا لن أتغير . . أما تغيره هو فلا يهمنى

ــ الحياة ليس فيها جمود ، إنها حركة ، والحب كائن حى لا بد أن يتحرك إلى أعلى أو إلى أسفل ، إلى أمام أو إلى وراء . .

ــ إنه حتى الآن يتحرك إلى أعلى ، إلى أمام .

ــ ألم يبلغ الذروة بعد ؟

ــ لا أعرف ولكننى أشعر أنه فى جلدى ، فى عظامى ، فى أنفاسى .

ــ لم أقل لك إنه منك وليس منه !

ــ أياً كان مصدره ، فإننى سعيدة . .

ــ أحاذر عليك من الصدمة !

ــ وماذا تعنيني . . إننى أشعر الآن أننى أقوى منها وأقوى من أى صدمة . أشعر أن الله فى داخلى . . .

ــ لم تجيبي عن سؤالى ، هل هو منك أو منه أو منكما معاً ؟ . . الجواب يحدد طبيعة هذا الحب إذا كان منك وحدك فهو عبادة للحب فى ذاته ، وإذا كان منه فهو تجاوب ،خيوطه فى يد مانحة إذا جذبها انهار وتحول إلى رماد . وإذا كان منكما معاً توقفت حياته على تصرفات كل منكما .

ــ أنت تتحدث عن الحب كما لو كان عملية عقلية ، وعقلى متوقف عن العمل الآن ... أنا سعيدة ، هذا هو كل ما أعرفه. سعيدة لأننى

أنتظره . إنه مسافر وسيأتى فى هذا المساء .

وأغمضت عينيها كالحالمة وقالت : سأراه .

* * *

وانصرفت وتأملت حديثها. كانت منذ سنوات تترامى الرجال على أقدامها وتسخر منهم ، وهى الآن تترامى عند أقدام رجل لأن الحب أضاء قلبها ... هل تحبه حقاً ؟ .. أم أنها سئمت جمود العاطفة فى القلب المغلق ، ففتحت قلبها لأول طارق وتصادف أن كان هو أول طارق ؟

من يدرى ... ما أعجب العواطف وما أعجب المرأة ... يختلط عندها الحب بالعبادة ويختلط الإيمان بالحب ، وتحس أن الصلاة فى محراب الحب صلاة فى محراب الله . . .

المظهر والحقيقة

قالت له : هل ترى القمر بوضوح ؟
أجاب : أحسب أنني أفعل !
ــ هل ترى ما فيه من وهاد وجبال ؟
قال : أرى وجهه المنير وحده ، وجهه الجميل . . .
ــ ولكن هذا الوجه ليس الحقيقة . .
ــ وماذا تعنيني الحقيقة ؟ . . يكفى أننى أرى وجهاً جميلا . أنت مثلا بارعة الجمال ، هل تعرفين ماذا وراء عينيك الساحرتين من تلافيف فى المخ ؟ هل تعرفين ماذا وراء فمك العذب من لسان ولهاة . ومنظر غير جميل ؟ . .
وأوقفته منزعجة : اسكت . . اسكت .
قال فى هدوء : هذه هى الحقيقة لماذا تخافين منها ؟
قالت : لم أقصد هذا النوع من الحقيقة .
ــ وهل الحقيقة أنواع ؟
ــ لها وجوه . . .
ــ حسبت أن لها وجهاً واحداً . وبغير ذلك لا تكون حقيقة . .
وسكتت لحظة محتارة فى تردد ثم سألت فى عين يشع منها السحر : ما هو الحب ، حقيقته ؟
ــ لا أعرف له حقيقة . . أعرف مظهره .
ــ المظهر يصدر عن حقيقة ، ولكى نعرفه تماماً لا بد أن نعرف الحقيقة ، الكيان .
ــ ولكن لماذا الإصرار على معرفة الحقيقة ألا يكفى المظهر ...

أزعجتك معرفة الحقيقة فى وجه القمر الجميل وأزعجتك معرفة الحقيقة وراء وجهك الجميل . .

ـ هل تعنى أن حقيقة الحب أيضاً بشعة ؟

ـ كلا لم أقصد هذا ، كل ما قصدته ألا نشغل أنفسنا بحقيقة الأشياء ، يكفى ظاهرها .

ـ المنافق الذى يغرقك فى المديح والثناء مثلا، ألا تحب أن تعرف حقيقته ؟

ـ وماذا أفيد من هذا ؟

ـ تعرف أنه منافق ، وتميز بينه وبين غيره من الصادقين .

ـ ما ذا لو تقصيت وراء الصادقين ثم عرفت فيما بعد أنهم كاذبون ؟ ألا تعرفين ما قاله على بن أبى طالب كرم الله وجه : «لو عرف أحدكم ما بقلب أخيه لم ينظر فى وجهه » .

ـ أنت متشائم ، تعنى أنه لا يوجد إخلاص ولا حب على هذه الأرض . . .

ـ كلا بل يوجد ولكن تقصى الحقيقة إلى آخر مداها مزعج . . أنت جميلة ما فى هذا شك ولكن تقصى الحقيقة وراء هذا الجمال أمر مزعج . . القمر جميل دون شك ولكن تقصى الحقيقة وراء هذا الجمال أمر مزعج . . الحب شىء جميل ما فى هذا شك ، ولكن تقصى الحقيقة وراء هذا الجمال أمر مزعج حتما . . .

ـ أنت تعمم فى أحكامك . . الحب شىء آخر .

ـ ولماذا يكون شيئاً آخر !

ـ لأنه أجمل ما فى الحياة . .

ـ وهو أيضاً أسوأ ما فى الحياة . . إنه يؤدى أحياناً إلى الجنون والانتحار والتعاسة . .



– فقدانه أو الفشل فيه وليس هو بذاته . . .

– الأمر لا يختلف .. فلو لم يكن موجوداً ما نتجت آثاره ، والشيء يؤخذ فى مجموعه وليس فى وجه واحد من وجوهه .

وسكتت الفتاة كالمهزومة وتألقت فى عينيها دمعة وقالت : أنت تهدم حياتى لأن آمالى كلها قائمة على رجل يحبنى . .

– أواثقة أنت من حبه ؟

– هكذا أعتقد . . .

– إذن ماذا يشقيك . . ماذا يخيفك ؟

– أخشى أن يكون كاذباً ... هنا تكون الكارثة ...

– ولكن لماذا لا تقنعين بالظاهر . . .

– لأننى أحب الحقيقة . .

– هل يزعجك مثلا إذا عرفت أنه أحبك لجمالك وشبابك ؟

وتريثت برهة ثم قالت : تعنى أنه إذا ذهب الجمال والشباب ، ذهب الحب . . .

– هل يزعجك مثلا إذا عرفت أنه يحبك لعقلك واتزانك وخلقك ؟

– فإذا اضطرب العقل وساءت الأخلاق ، ذهب الحب .

– هل يزعجك مثلا إذا عرفت أنه يحبك لأنك ذكية متفوقة ينتظرك مستقبل سعيد فى فى عملك ؟

وصرخت : هذا ليس حباً . . إنه تجارة .

– إذن كيف تريدين أن يحبك ومن أجل أى شيء ؟ . .

وسألت فى يأس : هل لا بد أن يكون للحب سبب ؟

– لكل شيء سبب .

وقالت مصرة : . . . الحب . . . إنه يقع كالقدر .

– فى الظاهر هذا صحيح ، ولكنه فى الواقع تجرى عليه نواميس الكون .:

ـ ماذا تعنى بنواميس الكون ؟

ـ أعنى أنه سبب ونتيجة ، كائن حى لا بد أن يولد وينمو ويعيش ويمرض ويتشوه ويضعف ويموت . . بعض أنواع الحب قصيرة الأجل لا تكاد تظهر إلى الوجود حتى تتعثر ، بعضها أقوى يعيش أطول . .

ـ ألا يوجد الحب الخالد ؟ . .

ـ يتحول إلى ذكريات جميلة أو أليمة .

ـ أنت تضايقنى وتهدم أحلامى. . .

ـ خير من أن تضعى قدمك على أرض من الأوهام .

ـ ولكنها تسعد فى بعض الأحيان . . .

ـ وتشقى فى بعض الأحيان . . .

ـ تعطى وتأخذ . . .

ـ هذا صحيح . إذا آمنت بمبدأ الأخذ والعطاء فلا خوف عليك . .

نرجع إلى القمر وإلى وجهك الجميل وإلى الحب الجميل ، كل منها يتألف من عناصر إذا أخذ كل عنصر وحده شاهت الصورة ، أما إذا ضممت العناصر بعضها إلى البعض الآخر كملت الصورة وكان لها بهاؤها . . . تعطيك فى المظهر الجمال وتعطيك فيما وراء المظهر القلق والخوف وربما الاشمئزاز . . . كلما كان المظهر أخاذا اختفت العناصر الكريهة ، فإذا ساء المظهر ازداد ظهور العناصر المكروهة وبدأ الاضمحلال .

مزايا المرأة

قالت له : جئتك أمس ، ولم أجدك . .
قال : لم يكن بيننا موعد .
ــ حسبت أنك تحس بقلبك ... الذى تملؤه العاطفة يقوده قلبه . .
ــ والعقل . . .
ــ العقل يحسب ويقدر ويفكر ويقيس ثم يتصرف .
ــ وأنت ، ألا تستخدمين عقلك ؟
ــ حيث تكون العاطفة قوية لا أشعر بحاجتى إلى العقل .
ــ أفهم من ذلك أن عاطفتك ليست قوية . . لقد استخدمت العقل معى ذات مرة . . .
وتولتها الدهشة وسألت منكرة : متى حدث هذا ؟ . . .
قال فى هدوء له معناه: فكرى. . إن المرأة تنسى وهى فى حاجة إلى ما ينعش ذاكرتها . .
قالت فى إصرار : المرأة لا تنسى .
ــ إذا سلمنا أن المرأة يحكمها قلبها فمن المحتم أن تنسى . إن القلب متقلب ، أما العقل فثابت صامد .
ــ تريد أن تقول إن الرجل أكثر ثباتاً من المرأة فى عاطفته . .
ــ ربما عنيت هذا .
واستشاطت غضباً : هذا غير صحيح . . أبداً . . أبداً . المرأة أثبت وأصدق عاطفة .
ــ هذا رأيك ؟
ــ ورأى كل الناس .

ــ تستطيعين أن تؤكدى أنه رأيك ، أما أنه رأى كل الناس ، فالأمر مختلف .

قالت : المهم ما تعتقده أنت لا ما يعتقده الناس . .

ــ وهذا شيء آخر ، إن المرأة تعيش فى عالمها ولا يعنيها عالم الناس .

ــ بل إنها فى صميم عالم الناس . . .

ــ إنها تعتقد أن عالمها هو الذى ينبغى أن يكون عالم الناس .

ــ أنت متحامل على المرأة . . .

ــ بالعكس ، أنا أحاول أن أفهمها . . .

ــ هل هى معقدة إلى هذا الحد ؟

ــ كلا إنها ليست معقدة ، ولكنها لاتعترف بالمنطق . المعادلات الصحيحة عند الناس لا تكون صحيحة عندها إلا إذا كانت توافق هواها .

ــ تعنى أنها هوائية . . . وهذه تهمة أخرى . . .

ــ كلا ، قولى إنها مزية أخرى . . .

ــ خرجنا عن الموضوع .

ــ لست أنا السبب إن المرأة أيضاً ليس لديها التركيز . . إنها تنتقل بسرعة من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين . .

ــ لم يبق شيء سيء لم تلصقه بها .

ــ كلا ، إنه ليس شيئاً سيئاً . . . مزية ثالثة . . .

ــ أولا إنها متقلبة وإنها لا تعترف بغير العالم الذى تعيش فيه وإنها تنسى وتذهب من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين ثم إنها لا تعترف بالمنطق . هل كل هذه الأشياء مزايا ؟ . . .

ــ بالتأكيد . . تصورى ، لو لم تكن المرأة كل هذا ، هل كان الأدب والفن والحياة تكون بهذا الثراء والجمال ؟

ــ بسبب هذه المساوئ . . .

ــ إنها ليست مساوئ ، كما قلت لك ، وأرجو أن تضيفى إليها مزية أخرى هى أنها متناقضة . تصورى لو أن المرأة حكمها العقل والذاكرة القوية والمنطق الجامد ، تصورى أنها ثابتة معقولة لا تتناقض ولا تثور ولاتبكى ولا تصرخ . . تصورى كيف كانت حياة الرجل تكون بل كيف كانت الحياة تكون .

وفتحت عينيها دهشة وسكتت بينما استطرد : الفستان اللامعقول الذى ارتدته بعض السيدات فأظهر صدورهن . .

قالت : وماذا فى هذا ؟ . . إنه لم ينتشر ، قاومه الرجال . .

ــ ولكن هل اقتنعت المرأة ؟ إنها لم تقتنع وسترين بعد قليل أنه سينتشر ومن يدرى لعل سيادتك ترتدينه حينئذ . .

ــ أنا ، وهل هذا معقول ؟

ــ إنه ... حقيقة ... غير معقول ، ولكن أى شىء فى المرأة معقول ، لا تنزعجى . . هذا أيضاً من مزاياها . إن الرجل منذ وجد يكافح لكى يجعل المرأة معقولة . ومع الأسف إنها هى التى جعلت الرجل غير معقول .. لا تنزعجى أيضاً . آدم ترك الجنة وهذا شىء غير معقول ولكنه حدث لأن حواء أتت أمراً غير معقول.. أكلت من الشجرة المحرمة ، عصت أمر ربها ..

ــ إنها إرادته ، إرادة الله سبحانه وتعالى ، ولو شاء ألا تعصى أمره ما فعلت . .

ــ تقصدين أنها إرادة عليا أن تكون المرأة على ما هى عليه .

ــ وأن يكون الرجل أيضاً .

ــ لأول مرة فهمت أن مساوئ المرأة فضائل . . .

ــ لم أقل هذا . . .

ــ تغيرت بسرعة ، وأنت تقول إن الرجل ثابت لا يتغير .

ـ قلت إنها مزايا ولم أقل فضائل والمزية ليست دائمة فضيلة ثم إن المرأة . . .

وقاطعته ثائرة : كفى سفسطة ، إن المرأة تتكلم بمنطق أفضل من هذا.

أجاب ضاحكاً : لولا أنك امرأة ما جرى الحوار بينى وبينك على هذه الصورة المشوشة . .

ـ أنت السبب .

ـ وأنت طبعاً لا لوم عليك . . كل الفضائل فيك ، أما الرجل فمجرد منها ، مجرد من المنطق .

وقالت منتصرة : تماماً . . .

وأجاب ساخراً : وهذا شىء آخر جميل فى المرأة . . والآن متى أراك ؟

قالت : لن أحدد موعدا . . . سأجىء وقتما أريد . .

ـ وأنا ؟

ـ عليك أن تكون موجوداً فى الوقت الذى أختاره . .

ـ وكيف أعرفه ؟

ـ بقلبك !

ما بين السطور

قالت له : عذبتنى . . أنت لا تتكلم .

قال : هل لا بد من الكلام ؟ أنت تعرفين عواطفى نحوك . .

ــ كيف أعرفها ؟

ــ للمعرفة وسائل كثيرة . النظرة معرفة . اللمسة معرفة . اضطراب القلب معرفة . الاهتمام معرفة ، السكوت أحياناً معرفة . .

ــ المعرفة عن طريق هذه الوسائل إيحاءات وتفسيرات . ومع الإيحاء والتفسير يكون الشك والغموض ، وكلاهما يقتلنى .

ــ وهما أيضاً سر بقاء الحب بيننا . . .

ــ تعنى أن الوضوح يقتله .

ــ كلا ، قلت إن الشك يبقيه . . .

ــ والشك نقيض الوضوح . . .

ــ كلا ، قد يكون الشك مع الوضوح ، إن الكلام نفسه قد يكون موضعاً للتأويل والتفسير .

ــ الكلام الصريح لا يحتمل التأويل . . .

ــ ليس كل كلام صريح صريحاً . . اللسان يقول أحياناً غير ما فى القلب .

ــ هنا يكون الكذب والكذب أمره معروف .

ــ يلبس الكذب أحياناً ثوب الصدق .

ــ الكذب مفضوح . . .

ــ كيف ؟

ــ إحساسى يقول لى . . .

ــ إذن الإحساس وليس الكلام هو الأصدق .. ومن هنا أفضل ألا أتكلم وأدع إحساسي يخاطب إحساسك . .

ــ ولكن الصمت يقتلني . .

ــ أخشى أيضاً أن يقتلك الكلام . . إن الصمت أحنى على الإنسان من الكلام .

ــ ولكن الصمت قاتل . . .

ــ ومن الكلام ما يقتل . . ألم تقرئي أن السكوت من ذهب .

ــ إلا في الحب . . .

ــ لقد ابتذله الناس لكثرة ما تكلموا فيه . . إنه مقدس فالصمت أليق به والحب عبادة .

ــ الذين يعبدون الله يتكلمون . . يسبحون ويحمدون ويشكرون . .

ــ ولكن الله لا ينظر إلى ألسنتهم ولكن ينظر في قلوبهم . .

ــ الله يعرف السر والجهر ، أما أنا فبشر . حتى الآن لم أسمع منك أنك تحبني . . تراوغني كما لو كنت أطلب ترخيصاً بدخول الجنة . .

ــ أنت فيها من غير ترخيص . . أنت في قلبي .

ــ لماذا لا تقول . .

ــ أحياناً يبلغ الحب مرتبة أعلى من القول . . يخيل إلي أحياناً أن الألفاظ تغض من قداسته

ــ ولكنني راضية بالقداسة الأرضية . أنا بشر أريد أن أحس وأحلم وأتألم وأتكلم . .

ــ لو أسرفت في الكلام فقد قيمته . .

ــ خطاباتك لي تلغرافات . .

ــ ألا تقرأ ين ما بين السطور . . .

ــ ولماذا لا تكتب السطور وتكتب ما بينها هل هو ضيق الوقت أم

ضيق المساحة أم ضيق العاطفة ؟
ــ لا هذا ولا ذاك ، ولكنه إحساس منى أنك تفهمينى من غير أن أتكلم ، تحبيني كما أحبك .. إن الحب المتبادل يغنى عن السطور وما بينها.
ــ أريد أن أتأكد من وجوده . . .
ــ رغبتك فى التأكد من وجوده دليل على أنه غير كامل فى نفسك.
ــ بل هو كامل عندى . . إن ريبتى فيك أنت . .
ــ لو كان كاملا عندك لأغناك عن الشك والريبة . . إن الحب يستطيع أن يقوم بذاته . .
ــ من غير طرف آخر .
ــ من غير الشك فى الطرف الآخر .
ــ أنت متناقض . . قلت الآن إن الشك هو الذى يقيم الحب ، وتقول الآن إن الحب الكامل لا يحتاج إلى الشك . .
ــ الشك مرتبة لبلوغ الحب الكامل . . أنت الآن فى المرتبة الدنيا من الحب . ويوم تكفين عن الشك تبلغين مرتبته العليا .
ووضعت رأسها على صدره وقالت : أنت توجع دماغى . . قل إنك تحبنى وأرحنى . .

بقايا قيد

قالت له : لقد فقدتني . . .
سكت هنيهة ثم أجاب : تعني أن ما بيننا قد ذهب .
قالت : أعني أنه تحول . . أصبحت الآن أنظر إليك كحلم جميل تبدد .
سأل : وما هو نوع العلاقة الجديدة ، هل هي صداقة أم بقايا حب؟
ـ حب ، لا تنطق هذه الكلمة . . أنت لا تعرفها . . صداقة ، ربما كان وصفاً أقرب .
ـ الحب لا يمكن أن يتحول إلى صداقة . . ابحثي لك عن وصف آخر .
ـ لا يعنيني الوصف أو التحليل . . المهم أنني أجد في نفسي رغبة في أن أتحدث إليك وأن أتشفى فيك . .
ـ تتشفين . . نوع من الانتقام إذن !
ـ ربما كان نوعاً من التعويض . استرددت حريتي ، تخلصت من سيطرتك علي . أتحدث إليك وألقاك من غير قيود ، من غير سيطرة ، من غير أن أحاسبك أو تحاسبني . . كم أنا سعيدة ، أنت لا تعرف ماذا يعني أن تكون حراً من عاطفة طاغية .
ـ الحرية هنا فراغ ، والفراغ خلاء ، والخلاء ضياع .
ضحكت ساخرة ، وقالت : أنت تحاول إغرائي كي أعود إلى القيد .
ـ كلا لا أحاول إغراءك بشيء ، إنما أنا أحلل موقفاً تفرضينه علي .
ـ أنت المسئول عن هذا الموقف ؟ أعطيتك عواطفي نظيفة كاملة فلم تفهمها . . ظننت أنني امرأة كبقية النساء تنشد فترة هناء أو تنشد

مغامرة من المغامرات . كانت بالنسبة لى الحياة كاملة .

— وكانت كذلك بالنسبة لى . . .

— لا تقل غير الحقيقة . لو نظرت إلى كذلك ما فقدتنى . كنت تنشد جسداً وكنت أنشد روحاً . كدت أن تنزل بى إلى الجسد ولكننى اعتصمت بالروح . حاولت أن أرفعك إلىّ فلم أنجح. توقفت وترددت. كدت تنتصر ولكننى فى اللحظة الأخيرة قررت ونفذت . قررت أن أقتل الروح والجسد معاً . .

— والآن . . .

— كما ترانى أقف معك على مستوى واحد . ليس لك فى نفسى شىء خاص . وليس لك فى قلبى مكان ، لم يعد حديثك يخلبنى ، لم يعد صوتك يهزنى كما كان ، بطل السحر .

— وسعيدة ؟

— غاية السعادة . . ما هى السعادة ، إنها ليست شيئاً آخر إلا أن تسترد حريتك ، تشعر أنك سيد عواطفك ، سيد تصرفاتك . .

— ولكن المرأة تنشد عبودية العاطفة . إن سعادتها فى هذه العبودية . .

— والرجل ؟

— ينشد سيطرة العاطفة ، هذا هو حكم الطبيعة . سيطرة من الرجل واستجابة من المرأة .

— أنت مخطئ يا صديقى ، ومن أجل هذا فقدتنى . لم تفهم العاطفة من جانب الرجل إلا أنها السيطرة ولم تفهمها من جانب المرأة إلا أنها الخضوع ، مع أنها فى الواقع المشاركة .

— المشاركة فى العاطفة لا تنتج حباً وأعنى بالمشاركة التساوى فيها .

— تعنى أن دور المرأة فى العاطفة يجب أن تكون الأدنى .

— كلا ليس هذا ما قصدت إليه ، كل ما قصدته هو أن العاطفة

فى المرأة لها تحليل آخر غير العاطفة المقابلة لها فى الرجل . إن العاطفتين إذا كانتا من نوع واحد لم تلتحما ، إن التناقض بينهما هو الذى يؤدى إلى الالتحام .

سكتت قليلا وكأنها تتأمل هذا الكلام ومراميه ، ثم سألت فى سخرية : أنت تتفلسف لكى تغطى فشلك . . .

ونظر إليها فى دهشة وقال : فشلى . . . فشلى فى ماذا ؟

ــ فى أنك لم تستطع الاحتفاظ بى . .

ــ ولماذا لا نقلب الموضوع ونقول إنك أنت التى فشلت فى الاحتفاظ بى . . .

ــ لأننى أنا التى انصرفت عنك . . أنا التى توقفت عن العاطفة . .

ــ هل أنت واثقة من هذا ؟

ــ كل الثقة .

ــ أخشى أن يكون الأمر مختلطاً عليك . هل قرأت قصة الثعلب الذى أراد أن يصل إلى العنب ، فلما أعياه الوصول إليه قال هذا حصرم.

وكادت أن تقذفه بمروحة فى يدها وكزت على أسنانها وقالت : وقح. أنت لا تستحق فتاة مثلى ، أثبت هذا . .

قال هادئاً : والآن . . هل نفترق ؟

ــ لقد افترقنا ، وانتهى الأمر . .

ــ إذن لماذا هذا الحديث . .

ــ لكى أثبت لك أنك لم تصبح فى حياتى . . لم تصبح بالنسبة لى شيئاً .

ــ محاولتك إثبات هذا دليل على أن الأمر لم ينته . الذى لا يشعر بشىء لا يحمل نفسه مشقة إثبات أنه لا يوجد .

— أنت تعزى نفسك ، تحاول أن تؤكد لها أنك لم تفشل . .
— وجودك معى الآن دليل على أننى لم أفشل . إن ما فى نفسك مرحلة من مراحل الصراع .
— أى صراع ؟
— الصراع ضد سيطرة الرجل ، أنت تحبين هذه السيطرة وتكرهينها فى الوقت نفسه .
— لقد تخلصت منها نهائياً وأنا سعيدة بهذا .
— لن تستمر سعادتك . أنت فرحة لانتصارك على قيود العاطفة ، ولكن هذه الفرحة لن تطول . ستشعرين بالفراغ وتتوقين إلى القيود ..
— تخريف !
— الزمن بينى وبينك وهو الفيصل . .
— سترى .
— وسترين .
قالت فى سخرية حاولت بكل وسيلة أن تجعلها تظهر كأنها صادقة : يبدو أنك واثق من رأيك !
— إنه ليس رأياً ، إنه طبيعة لا تتخلف . . إنها المرأة والرجل . .
— تعنى أن المرأة تحب قيد العاطفة . .
— قلت هذا من قبل ، تحبه وتكرهه . . تثور عليه ثم تعود إليه .
قالت فى تحد : إذا تاقت نفسى إلى قيد العاطفة فلن تكون معك .
أجاب فى هدوء : هذا شىء معقول وممكن ولكن . .
وصرخت : ولكن ماذا ؟
— نفد صبرك ، انتظرى . . إن القيد لم يتحطم تماماً ، لا تزال فيه بقية . .
— أنت مخدوع تريد أن تطمئن نفسك .

ـ لا تغضبى حينما أقول لك إن هذا الحديث الطويل الذى جرى بيننا هو بقايا القيد ، هو الحنين للعودة إليه .

ـ لن أعود . .

ـ ستعودين . . .

ـ ليس لك . . .

ـ أنت لم تنفصلى عنى ، وما زلت مرتبطة بى .

ـ هل هو إيحاء ؟ . .

ـ إنه الحقيقة . . الحقيقة التى تتجاهلها المرأة دائماً .

ـ تثير أعصابى ببرودك . .

ـ وهذا دليل حسن . .

وهدأت غضبا وقالت : دليل على ماذا ؟

ـ على أنك لم تتخلصى من القيد وعلى أنك لست صادقة الرغبة فى التخلص منه ، ما دمت أستطيع إثارتك فأنت ما زلت فى القيد .

ـ إنى أكرهك . . .

ـ وهذا دليل آخر . . .

مطر وتراب ونفس

انهمر المطر ، وامتلأت الشوارع بالماء المتجمع فى الزوايا والأركان واختفت الشمس ونزلت ندف من الثلج ، وأظلم الجو ، وأسرع الناس فى الشوارع يلتمسون الملجأ أو الفرار . جو المطر ، إنه يغسل الأرض وليته يغسل الناس ، ويلون السماء بألوان داكنة ، وزاهية . . فيها لمسات من ريشة فنان . وفى جو المطر يأوى الإنسان إلى ذكرياته كأنه يلتمس فيها الدفء والحنان . . لماذا يحدث هذا ؟ ربما لأن الجو المظلم يجعل الإنسان تلقائياً ينكمش فى نفسه ويخلو إليها . . ربما لأن وهج الشمس يحملنا على النظر فى الخارج ، وظلمة المطر تعود بنا إلى الداخل .

كنت أنظر من النافذة فأجد الجو الغائم ، وأنظر فى نفسى فأجد مثل هذا الغمام ، تكاثر فيها التراب ، وأزعجنى أننى منذ أمد طويل لم آخذ منها وأعطى . . فانفصلت عنى أو كادت . كان لابد أن آوى إليها أرفع عنها التراب لكى يصفو لى وجهها . أحسست أن المطر يغسلها وينظفها .

قالت نفسى : أصبحت مجرد آلة لا تفكر ولا تتأمل ، أنت تظلم نفسك . . .

قلت : أظلمك . . وهل أستطيع ؟

قالت : وهل عندك ظلم أكثر من أن تهجرنى ؟

قلت : ولكنك معى دائماً . . أنت أمارة بالسوء .

قالت : تبرر خطأك وترمينى به ؟

قلت : من أين يجىء الخطأ إذن ؟

قالت : من حيث يجىء الصواب . .

قلت : لم أفهمك . .

قالت : كنت تفهم كل شيء فيما مضى أما الآن فقد أصبح بيني وبينك حجاب !

قلت : ولماذا لا توقظيني إذا سهوت أو غفلت ؟

قالت : وهل فى الضجة يحسب للهمس حساب؟ أنت لا تستطيع أن تسمعني إلا إذا خلوت إلى ، وأنا أراك أكثر الوقت مع الناس . .

قلت : وفى الليل حينما آوى إلى مضجعي ؟

قالت : يهدك التعب فتنام ، شكراً للمطر ، ليته يطول .

قلت : أنت أنانية ، تريدينى أن أعيش معك ولا أعيش مع الناس.

قالت : أنت تغالط . . طول عمرك تعيش مع الناس ومعى . . ما أردت أن أفصلك عنهم ، ولكن كرهت أن تنفصل عنى . .

قلت : أعيش مع عقلى وقلبى . .

قالت : ياللمسكين ، وهل تستطيع أن تعيش معهما وحدهما .. العقل جاف خشن ، وما أحسبك ترضى أن تكون جافاً خشناً ، والقلب أحمق أهوج ، وما رضيت لك يوماً أن تكون الأحمق الأهوج .

قلت : أمزج بينهما فأعيش حياة سواء .

قالت : أنا الذى أمزج بينهما ، ومن غيرى تنكمش فى هذا الجانب أو ذاك . وتنطلق من هذا الجانب أو ذاك . . لا الانكماش يجديك ولا الانطلاق يجديك . . فكر معى . . إن الحياة ليست عقلا خالصاً ولا قلباً خالصاً .

قلت : لم تأت بجديد ، تعلمت هذا منك منذ أمد طويل .

قالت : والأستاذ القديم ألا يستحق منك تحية عابرة أو وقفة من حين إلى حين حتى لاتتى أو تغوى ضلالا .

قلت : الغواية والضلال منك . .

قالت : أجبنى بصراحة ، هل أنت سعيد ؟

قلت : تهربين من السؤال . .

قالت : تريث ، ستعرف أننى لا أهرب منه . لقد عاشرتك دهراً طويلا .

قلت : ومع ذلك فلا أحسب أننى أعرفك .

قالت : يا للجاهل الأحمق . . لا تعرفنى ؟

قلت : لا أعرفك لأننى لا أعرف من أين جئت ؟

قالت : وهل لابد أن تعرف المصدر حتى تعرفنى ؟

قلت : هذا أبسط ما تعلمت . .

قالت : ومن علمك إياه ؟

قلت : الكتب والأساتذة والحياة . . .

قالت : وهل تعرف المصدر الذى جاء منه ما فى الكتب والحياة وما لقنك الأساتذة إياه . . ؟

قلت : أزعم أنى أعرف .

قالت : حسبتك أذكى من هذا . . هل تعرف كل شىء ؟

قلت : وأنت هل تعرفين ؟

قالت : أكثر منك حتما لأننى أزلية أبدية وأنت طارئ ذاهب . .

قلت : افتنى إذن فيما لا أعرف له تأويلا . .

قالت : لا تفهم فتواى لأن التراب فيك كثير . .

وأشرقت الشمس من وراء حجاب كثيف ودخل إلى الغرفة شعاع رقيق ، فصحوت من غفوة لم تطل . وفتحت النافذة . وأرسلت ببصرى إلى السماء فوجدت سحباً كثيفة تغطى وجه الشمس إلا قليلا . .

أيهما أقوى ؟

قالت له : تأخرت عن موعدك . . أنا لا أشغلك . . لا قيمة لى . . مجرد شيء على هامش حياتك .

قال : العمل . . تأخرت قهراً عنى . . لا بد أن أنجز عملى أولا . .

ــ العمل . . العمل ، والعاطفة لا حساب لها عندك . . تلك التى تحترق ألا تستحق أن تؤجل عملك من أجلها .. ألا تستحق حتى أن تتركه ، ترمى به إلى جحيم ؟

ــ إن قيمتى فى عملى . . وأنت نفسك أحببتنى لأننى عامل ناجح .

قالت : السبب فى الحب شيء والحب شيء آخر .

ــ تعنين أنك أحببتنى لأننى ناجح فى عملى . . وبعد ذلك لا يهمك عملى . .

ــ يهمنى قلبى وحبى ، أن أشعر أنك لى ، لى . . كلك . . هل تفهم ؟

ــ أتغارين من عملى .. تغارين من سبب إعجابك بى. وإذا فقدت عملى وفقدت نجاحى فهل . .

ولم تدعه يتم جملته ، بل سارعت إلى القول : نعم لن أكرهك ستزداد قيمتك فى عينى سأحبك أكثر وأكثر . .

ــ تحبين رجلا فاشلا فى حياته .

ــ لقد أحببتك وانتهى الأمر . . لن أتحول عنك .

ــ أنت مخطئة . . إن الحب ككل شيء فى الدنيا يتحول ويتغير .

ــ تعنى أننى يمكن أن أكرهك . .

ــ بل من المؤكد أنك ستفعلين لو أصبحت إنساناً فاشلا متعطلا

أقضى وقتى أنتظر موعدك أجىء قبله وأنصرف بعده .

قالت : وأنا لماذا لا أتخلف عن الموعد، لماذا لا أتأخر عنه ؟ إننى أعمل مثلك . . لدى مشاغلى ولدى مستقبلى فى عملى .

ـ العمل بالنسبة لك ليس كل شىء . . أنا مثلا لم أحبك لأنك ناجحة فى عملك .

ـ لماذا أحببتنى إذن ؟

قال : لأننى أشعر بالراحة معك . أشعر كأن متاعبى تذوب وأنا أنظر إليك . وجهك يعطينى الأمان والابتسام .

ـ مجرد دمية ، شىء للزينة . لا يعنيك عملى . . لا يعنيك أن أن أنجح فيه .

ـ قلت لك إننى أحببتك لا من أجل عملك ، ولكن من أجل شخصك . . .

ـ لو كنت فاشلة وعاطلة أفكنت تحبنى ؟

ـ بالتأكيد يكفى أن أكون أنا ناجحاً فى عملى . إن عملك الأساسى بالنسبة لى أن تريحينى من متاعبى .

ـ أنت متأخر فى أفكارك . . كنت أظن أنك أكثر من هذا تقدماً . .

ـ وأنت هل ترين نفسك أكثر تقدماً وأنت تصرين على أن يكون الحب مقدماً على العمل ؟

ـ لم أقل هذا . . كل ما فى الأمر أننى أرى فى تأخرك عن موعدى عدم اهتمام بى .

ـ وماذا يحملنى على أن أقول لك إننى أحبك، لا أريد منك شيئاً، وأنت أيضاً لا تريدين منى شيئاً . . أنت مكتفية اقتصادياً وأنا مكتف اقتصادياً . . إن ما بيننا حب صريح لا غرض فيه قد يؤدى إلى الزواج. وأحسست بشىء هزها فى عنف ، ولكنها أخفته ، وقالت وكأنها

غير مكترثة : هذا صحيح ولكـ ن . .

ـ ولكن ماذا . . أنت تفكرين فى الحب بالأسلوب القديم . . امرأة تستولى على رجل . .

ـ وما هو الحب فى نظرك ؟ . .

ـ علاقة متساوية لا استيلاء فيها من طرف على طرف . . أنت تبذلين عواطفك لى لا لأنك تريدين أن تتزوجينى . ولكن . . لأنك تشعرين أننى الرجل الذى ترتاحين إليه .

ـ وما هو الفرق ؟ . .

ـ فرق كبير . . التى تريد أن تتزوج لأنها محتاجة إلى الزواج لكى يعطيها أماناً من الناحية الاقتصادية غير التى تحب مجردة من هذا الدافع . . الأولى تتغاضى عن كثير من العيوب فى سبيل غرض يعطيها الأمان والاستقرار ، وقد لا تكون محبة على الإطلاق ولكنها تمثل دور المحبة . . أما الثانية فتعطى عن اختيار وتشعر بحب حقيقى .

ـ لا تزال فى نفسك رواسب قديمة .

ـ بل أنت التى لا تزال فى نفسها هذه الرواسب . . أنت تنظرين إلى الرجل كأنه مكسب ، صفقة ، لا بد أن تملكيه . . لا بد أن تقصى أجنحته حتى لا يطير . .

ـ وأنت لست حريصاً على . . لا يعنيك أن أبقى أو أن أطير .

ـ يعنينى أن تبقى با ختيارك وليس عن خوف أو حرص على مصلحة أو غاية . . أريد أن تشعرى بأننى الرجل الذى يسعدك .

ـ الرجل الذى يسعدنى هو الرجل الذى يضعنى قبل كل شىء ، قبل عمله أيضاً .

ـ رواسب قديمة . . لا تعارض بين العمل والحب ، كلاهما مقدس العمل يجعلنى فى نظرك أقوى كما أنه يجعلك فى نظرى أقوى .

ـ ليس الحب محتاجاً إلى القوة عند هذا الطرف أو ذاك .

ـ بل هو محتاج لها كى يعيش ويستمر . . إن المرأة الضعيفة لاتحب حباً حقيقياً . . حبها يكون مشوباً بحاجتها إلى قوة الرجل ، والرجل الضعيف لا يحب هو الآخر حباً حقيقياً، حبه يكون مشوباً حتماً ـ حتى وإن أنكر ـ بحاجته إلى قوة فى المرأة من الناحية التى يأتيه منها الضعف .

الاعتياد على العطش

قالت : دعني وشأني لا تعترض طريقي . .
قال : أنا لا أعترض طريقك . . أنت التي تصنعين . .
سألت : هل دعوتك لمقابلتي ؟ . . أنت الذى فعل .
ـ ولماذا أجبت دعوتي . . لا بد أنك تريدين ؟
ـ إرادتي هنا صدى لإرادتك . . ليست إنشاء مني . . ابتعد عن طريقي ، أرجوك . . لا أطيق . . لا أقدر ، ارحمني . . دعك مني . .
ـ ألا تحبينني ؟ .
ـ أنت تعرف الجواب ، ولكنني أريد أن أقتل هذه العاطفة . . إنها تدمرني . . أكره الحب من غير أمل . .
ـ وما هو الأمل في الحب ؟ . . الحب نفسه هو الأمل . .
ـ حتى ولو كان مأساة . . . أنا واقعية . أحبك فإما أن أحصل عليك وأمتلكك وإما أن أنصرف إلى شأني . . وأنت تعرف أن حبنا من غير أمل . لا تستطيع أن تتزوجني ولا أستطيع أن أتزوجك .
ـ قد تتغير الظروف . . ما دمنا نعيش فلا ينبغي أن نفقد الأمل . .
ـ حينما تتغير الظروف ، أحبك من جديد . .
ـ هل يمكن أن ينقطع الحب ثم يعود .
ـ ومن قال إنه سينقطع . . سيختفي في الأعماق .
ـ سيموت . . .
ـ كلا لن يموت . . .
ـ البعد يقتله ، الإهمال يقتله . . إيقاظه بعد ذلك مستحيل . .
ـ ولماذا نوقظه ؟

ــ إذا تغيرت الظروف . .

ــ لن تتغير . . أنت لست لى وأنا لست لك . . إننى أتعذب إذا كنت قريبة من الماء ولا أستطيع الحصول عليه . . خير لى أن يختفى من أمام ناظرى . . أن تكون الصحراء لا حدود لها فأعتاد العطش ، .

ــ العطش يقتل . .

ــ ليس دائماً . . من النباتات ما يعيش على الجفاف . .

ــ المطر يرويها من وقت إلى آخر . .

ــ سأعيش أنا أيضاً على المطر . .

ــ ومتى يسقط ؟ . .

ــ حينما أراك مصادفة فى الطريق ، فى حفلة ، فى النادى ، فى اجتماع عائلى .

ــ وما الفرق ... أنا ألقاك الآن كما لو كنا فى الطريق ... فى حفلة ، فى النادى . . .

ــ كلا ، الفرق كبير . . أنا هنا معك وحدى وأنت وحدك معى .. الاقتراب يشعل النار .

ــ وهناك أيضاً اقتراب . .

ــ فرق بين الاثنين : هنا أريد أن أمتلكك ولا أستطيع فأموت حسرة ..

ــ وهناك . . .

ــ لا أفكر فى امتلاكك لأنك بعيد عنى ، الناس بينى وبينك .

ــ وما شأن الناس بنا ؟

ــ بل لهم كل الشأن . حواجز تمنع الماء من التدفق ، تمنع النار من الاشتعال . .

ونهضت فجأة وقالت مصممة : لن ترانى . . أعطنى وعداً ألا تطلب لقائى .

ـ وإذا لم أستطع الوفاء بالوعد ؟

ـ تكون إذن عامداً أن تعذبني . أن ترانى أحترق . . أنت أنانى . . لا تحبنى ، ولو كنت لساعدتنى .

ـ أمرك عجيب . هل الدليل على الحب هو الابتعاد . .

ـ فى بعض الأحيان . . حينما لا يكون هناك أمل . . أنت تفسد حياتك وحياتى .

ـ الابتعاد هذا عملية بتر . لا طاقة لى على مشاهدة الدم ينزف بغزارة . . .

ـ خير من أن يتسلل قطرة قطرة ، فأموت ببطء .

العواطف والتدبير

قالت وهى تفكر : لست أدرى ماذا بينى وبينك .. هل هو الحب ؟ هل هو الخوف ؟ هل هو الإعجاب ؟ هل هو التقديس والاحترام ؟ اعتدت أن أفضى إليك بكل ما أحس به . . أحياناً أكرهك . أحياناً تختلط صورتك فى خاطرى بصورة أبى . . أحياياً أعجب حتى لأجعلك فى منزلة إله . .

ــ والآن . . ماذا أنا بالنسبة لك ؟ . .

ــ حينما مات أبى تصورتك بديلا عنه . . لعلك تذكر أننى قلت لك هذا . كنت أحب أبى حتى العبادة . لم أتصور أنه مات . أردت أن تكون حياتك امتداداً لحياته . كنت سعيدة بك حقاً .

ــ يخيل إلى أنك نسيت ، لم تكونى سعيدة معى . . اذكرى . . كثيراً ما قلت لى إنك تكرهيننى .

ــ لأننى كنت أكره أبى فى بعض الأحيان . .

ــ كيف اتفق الحب حتى العبادة مع الكره . .

ــ هذا ما كنت أحس به . . كان أبى قاسياً ؟

ــ وأحببته مع ذلك ؟ . .

ــ لأنه كان عطوفاً . . كنت أرى فيه الرجولة الكاملة . . مات .. أنت لا تستحق أن تكون بديلا عنه .

ــ منذ لحظة قلت كلاماً آخر .

ــ ماذا قلت ؟

ــ نسيت !

ــ لا تغضب . . أنت تعرفنى أكثر من نفسى . ماذا قلت ؟

ـ قلت : إنك نظرت إلى بعد موت أبيك . كأنى البديل عنه . .
ـ والآن لا أراك كذلك . .
ـ هكذا فى لمحة ، فى لحظة تتغيرين . .
ـ هكذا خلقت . .
ـ ماذا أنا إذن ؟
ـ أخافك . .
ـ كنت تخافين أباك . .
ـ لم تصبح إياه ، أنت الآن شيء آخر . . أمس تضايقت . . ذهبت صورتك كأبى ، وبقيت صورتك كرجل . . لنفترق ، فهذا أفضل . .
ـ نفترق . . هذا أفضل ولكن لماذا لا نكون أصدقاء مثلا ؟
ـ هذا ما فكرت فيه . . قلت لى دائما إن فى نفسك خليطاً من المشاعر .
ـ نختصر بعضها . نهمله . ونستبقى الصداقة . .
ـ الأفضل أن نبتعد . . .
ـ أنت متناقضة .
ـ لأننى مهزوزة لا أعرف ماذا أريد على التحديد . أنت لا تفهمنى . . أنا فى حاجة إليك لكى تساعدنى على فهم نفسى . . هل لديك مانع لو صادقت رجلا آخر ؟
ـ كلا ، ولكن هل فى حياتك رجل آخر ؟
ـ أبحث عنه . . .
ـ إن المرأة لا تبحث عن الرجل كما أن الرجل لا يبحث عن المرأة إنه يقع فى طريقها كما تقع هى فى طريقه .
ـ من غير تدبير . .
ـ التدبير يفسد كل شيء . .

ــ ولكن كيف وقعت أنت فى طريقى وكيف وقعت أنا فى طريقك ؟
ــ تاريخ طويل . . أنا وأنت . . كلانا . . لم يسع إلى صاحبه .
ــ وهل فى الدنيا شىء يقع من غير سعى . . ؟
ــ أجمل ما فى الدنيا يقع من غير سعى ، يجىء بإرادة عليا ومن قدر يعرف كيف يسير بنا !
ــ ونقبله من غير مقاومة ؟
ــ حينما يكون القدر هو الذى يريد ، فماذا تجدى المقاومة ؟
ــ أنت تتحدث كما لو كنت صوفياً وما عهدتك كذلك .
ــ علمنى تناقضك أن أكون صوفياً .
ــ وهل يجىء التصوف من التناقض ؟
ــ حينما تكون المتناقضة امرأة !
ــ وحينما يكون رجلا ؟
ــ يكون دمه ثقيلا ، ربما أدى إلى الكفر
ــ تعنى أن دمى خفيف . .
ــ لم أقل هذا . .
ــ أنت لا تقول شيئاً ، ولكنك تدير رأسى . .
ــ ليس أكثر مما تديرين رأسى . .
ــ إلى أى شىء وصلنا ؟
ــ ومتى وصلنا إلى شىء ؟ . .

الدمية

قالت له : تحبنى كما تحب الدمية . ستحطمُها يوماً من الأيام .. أنت طفل .

وكظم غيظه وقال وكأنه غير مكترث : وأنت ؟

أجابت فى تحد : امرأة . .

وسكتت وفى عينها شرر كأنه الحمم . وسكت هو أيضاً فى ابتسام المطمئن وكأنه ينتظر منها تكملة وقالت فى تهجم : ألا تنطق ؟

ــ لست أفهم ماذا تقصدين بقولك إنك امرأة .. هل زعمت أنك رجل ؟

وضاقت به ولكنها كظمت غيظها ولاذت إلى غريزتها وقالت كالمستهترة : امرأة . . الحب كل شىء فى حياتها . .

ــ وأنا رجل . .

ــ لم أفهمك . . تعنى أن الحب ليس كل شىء فى حياتك .

وتبسم فى رفق وقال : ليس إلى هذا الحد . .

ــ إذن ماذا تعنى ؟

ــ أعنى أن نظرتى . إليه تختلف عن نظرتك إليه . .

ــ ما هو الفرق ؟ . .

ــ الفرق أنك تريدين الاستيلاء على من تحبينه . الحب عندك غريزة تملك .

ــ وعندك . . .

ــ محاولة لإسعاد الغير .

ــ تعريف جديد . . .

ـ وما هو التعريف القديم ؟
ـ أن يفنى المحب فيمن يحب . .
ـ لم نختلف . . .
ـ بل اختلفنا . . أنت تنظر إلى كدمية جميلة تتلهى بها بعض الوقت ، فإذا سئمتها ركنتها .
ـ هذه هى الحياة .
واستطار الغضب من عينيها وقالت فى إصرار : الحب لا يعرف السأم.
ـ تعنين أن يظل الإنسان فى حالة حب مستمرة . .
ـ هذا هو ما عنيته تماماً . . إننى أكره عملك ، أكره نجاحك . . أكره كل شىء يشغلك عنى .
ضحك فى ابتسام هادئ وقال : تريدننى دمية فى يديك .. مجرد شىء تضعينه فى جيبك وتبحثين عن دمية أخرى .
ـ ماذا تعنى ؟ . أنت رجل متعب .
ـ ومن أجل هذا احتفظت بك حتى الآن . .
وصرخت كالمجنونة : لا بد أن تخضع أنت أيضاً .
قال فى هدوء : كشفت نفسك . . كشفك الغضب . . أنت غانية.
واستثارتها الكلمة وأحست أنها أصبحت فى يده كاللعبة ، هى التى اعتادت أن يكون الرجال فى يدها كاللعبة . وهدأت فجأة . ولجأت مسرعة إلى غريزتها فأنجدتها . . وانهمرت الدموع من عينيها ، ثم تولاها صمت من اليأس .
قالت : أنت قاس . . إننى أحبك . . لم أحب أحداً غيرك مثل هذا الحب .
وأحس أنها تهاوت . . كان على وشك أن يقول لها إنك لا تعرفين الحب . . أنت صائدة رجال ولكن فروسية الرجل الفاهم تغلبت عليه


جميل

فربت على كتفيها فى رفق .

* * *

وجمعت السحر كله فى عينيها ونظرت إليه فى ضعف ونداء . . . وقالت : اعصرنى بين يديك إننى فى حاجة إليك...وتردد .كان يشعر أنها لا تريد الحب ولكن تريد السيطرة ، لا تفهم جمال الحب ولكن تهيم بوحشية التسلط على الرجل . .

وشعرت أن أنوثتها أصابها جرح أليم وهو صامت كالتمثال. وانتفضت واقفة وفى وجهها تصميم عجيب قالت : أكرهك . . أكرهك . . أكرهك .

ولم يغضب بل قال فى برود : كشفت نفسك مرة أخرى . اعترفى أنك لا تحبين إلا نفسك . . الرجال بالنسبة لك مجرد مرايا تشاهدين فيها سحر جمالك وأنوثتك .

صرخت : أنت كاذب . . جبان . . منافق . . لماذا إذن كنت تقول إنك تحبنى . .

ـ لأننى أحببتك فعلا . .

ـ ثم . . .

ـ لا شىء . . ما زلت أحبك .

ـ أنت كاذب

ـ بل أنت . . .

* * *

وقذفته بكتاب كان فى يدها ولكنه تحاشى الغضب والكتاب بينما تهاوت جالسة وقد التصقت به وعادت دموعها تنهمر ، وفى هذه المرة كانت تنشج وتتألم من الأعماق . وهدأت قليلا ثم قالت : هل تحبنى حقاً ؟

كان واضحاً أنه أصبح سيد الموقف . . قال : أظن ذلك .

وعادت إليها الثورة ممتزجة بشيء من الذلة تحاول أن تدفعه عن نفسها : تظن . . . قل إنك متأكد . . قل أى شىء . . قل إنك تحبنى إننى فى حاجة إلى رجل قوى . . كل من عرفتهم كانوا دمى صغيرة . . أنت وحدك جعلتنى دمية .

ـ أو كارهة أنت لذلك ؟

ـ لست أعرف ولكننى أشعر بحاجتى إليك . .

كل عام وأنت بخير

قالت : لا تذكرنى فى غير العيد ، وكنت تذكرنى صباح مساء .
قال : وأنت أيضاً لا أسمع صوتك فى غير العيد . .
— أعاملك كما تعاملنى . . .
— لم تكونى هكذا فيما مضى . .
— أنت المسئول . . إن حبنا مات .
— وهل إذا مات الحب ، يكون هناك أحد مسئول . . وكيف نشأ . . هل كنت أنت المسئولة أم أنا المسئول ؟
وتأملت كأنها تسترجع الذكريات ثم قالت : الأيام تراكمت ، لست أرى شيئاً واضحاً .
— حتى البداية لن تبقى لها قداسة الذكريات . .
وقالت وكأنها تعتذر عن النسيان أو كأنها تحاول الهروب : كل عام وأنت بخير .
— أرأيت . . مجرد كلمة لا حرارة فيها .
— وأين ذهبت الحرارة ؟
— لست أعرف إلا أنها ذهبت .
— أنت المسئول . . .
— رجعنا إلى المسئوليات . . إنما تكون المسئوليات فى مسائل العقل . والحب ليس مسألة عقلية . ينشأ من حيث لا ندرى ويذهب إلى حيث لا ندرى . .
— يموت ؟ . .
— وماذا تسمين ما بيننا الآن . . ؟

وسكتت ثم أحالت عليه السؤال : وماذا تسميه أنت ؟
ــ بقية ضئيلة من حرارة بردت.. وسيأتى يوم أنسى أنا وتنسين أنت حتى التهنئة بالعيد . .
ــ هذا مستحيل ، سأظل أذكرك إلى أن أموت . .
ــ قلت هذا من قبل . . طالما سمعت منك أن حبنا هو الخلود . . . يا سيدتى . . الزمن أقوى منا جميعاً .
ــ هل الزمن هو الذى يقتل الحب أم هو الإهمال ؟ . .
ــ حينما يكون الحب قوياً لا يكون هناك مجال للإهمال . . حتى الإهمال يعجز عنه .
ــ ولكن الإهمال يضعفه . . .
ــ الجسم القوى لا تنتابه الأمراض ، فإذا بدأت الأمراض كان ذلك دليلا على أن الجسم ضعف .
ــ بسبب المرض . . .
ــ والمرض لا يجىء إلا بسبب ضعف الجسم . . أرأيت أنه دور .. سبب ونتيجة نتيجة وسبب . . ولكن ما الفائدة الآن من هذا الكلام . .
ــ ألا يمكن أن نرجع إليه . . إلى الحب ؟
ــ ما أحسب أننا نستطيع . . إنه نشأ بغير إرادة منا وانتهى بغير إرادة منا ، كيف نستطيع أن نعيده بإرادة وتنظيم ، بخطة من الخطط ... هل هو برنامج اقتصادى للتنمية .
وضحكت وقالت : أنت هكذا تسخر من كل شىء . .
ــ شكراً لك . . . كل عام وأنت بخير .
ــ وأنت بخير . . . لا تنسى . .
ــ فى العيد القادم إن شاء الله .

الغربة عن الناس

قالت له : منذ مدة طويلة لم أحدثك . . هل تذكرنى ؟
قال : أذكر الصوت . . .

ـ أنت ذكي . . منذ سنة ونصف السنة لم أتحدث إليك .

ـ إنه ليس الذكاء ، إنه الذاكرة . . ومع ذلك أشعر أنها بدأت تخون ، بدأت تنسى ، وياويل الذى ينسى . .

ـ كلا إن فى الحياه أشياء كثيرة يحسن أن تشطب ، أن تنسى ..

ـ إننى أكره النسيان . كل ما مر فى حياتى أحبه حتّى ولو كان مأساة ، ولذلك أكره أن أنسى .

ـ أنا على النقيض منك أحب أن أنسى ، أن أشطب اللوح كله ، وأبدأ من جديد .

ـ ليس فى الدنيا إنسان يبدأ من جديد حتّى ولا الطفل . . إنه يولد تكملة لسلسلة طويلة قديمة تصله بأجداده وأجداد أجداده ، تصله بالكون كله ، بالبدايه المجهولة ، إنه استمرار وليس بداية .

ـ هذه فلسفة ، وأنا كما تعرف على قدر حالى . .

ـ أدع الفلسفة فإنها فعلا مزعجة ، تجعل الرؤوس تدور ، وأسأل ما الذى حجبك هذا الوقت الطويل . . ؟

ـ قد لا تصدق . كنت أشعر أننى غريبة عن الناس ، متطفلة ، ثقيلة ، ليس عليك وحدك ولكن على كل الناس ، ألم تحس ذات يوم بمثل هذا الشعور ؟

ـ شعور الغربة عن الناس . . .

ـ ليست الغربة عن الناس وحدهم ولكن عن الدنيا كلها .

ـ تعنين الانفصال التام عن الحياة ، إنه شعور قاتل . .

ـ نعم هو قاتل . لقد عشت فيه فترة طويلة . لست أعرف من أين جاءنى . هذا الانفصال يتطلب أولاً نسيان كل شىء عن الماضى وقد نسيته . . .

وسكتت لحظة ثم قالت : هل تراه مبادئ جنون .

أجاب : ليس هكذا . ربما كان رغبة فى الانعزال والتأمل وإعادة النظر فى الحياة وموقفها منك وموقفك منها . .

ـ أنت تعرف قصة خطيبى وقد حدثتك عنها . كنت أنتظر عودته من السفر فى وله وجنون . وكان انقطاع خطاباته ولو فترة قصيرة يكاد يقتلنى . . لقد جاء . . عاد منذ شهور وكنت فى قمة الإحساس بالغربة عن كل شىء وكل إنسان فى الحياة . لقد قطعت كل علاقة لى به وشعرت بالارتياح أن فعلت . شعرت أن قيداً كان يربطنى بالناس قد انقطع .

ـ ولكن كل شىء كان قد تهيأ لإتمام الزواج ، ولم يكن ينقص إلا عودته . .

ـ تماماً ولكنه حينما عاد كنت أنا قد ابتعدت عن الناس والأشياء . كان على استعداد أن يغير دينه من أجلى ، وساءلت نفسى : إن الذى يغير دينه يمكن أن يغير كل شىء فيه . . يمكن أن يصبح إنساناً آخر غير من أعرفه ويصبح غريباً عنى ولن أشعر حينئذ بالاستقرار الذى أنا فى حاجة إليه. إن أعظم شىء تنشده المرأة هو استقرار النفس والإحساس أن الرجل الذى تختاره هو الرجل الذى يمكن أن يحميها ويحفظها وتشعر فى جواره بالأمان . هل تتصور أننى حتى أطلب رقم تليفونك ظللت مترددة فترة طويلة أتساءل لماذا أثقل عليه ولماذا أكلمه وما هى الفائدة من الكلام وزاد إحساسى بأننى غريبة عن الناس والأشياء ولم أجد حلا لهذا الشعور القاتل إلا بالتفكير فى أن أعمل .

قال مقاطعاً : هذا هو العلاج ، إن الفراغ هو القاتل .

وتابعت كلامها : والآن منذ بدأت أعمل استرددت نفسي وشيئاً فشيئاً أخذت أستعيد صلاتى بصديقاتى . بدأت أعود إلى الحياة . هل تتصور أن شعوراً قاسياً يسيطر على ويكاد يوحى إلى بأننى كمن كانت على سفر وعادت ؟

ــ أعتقد أنك ستستردين اهتمامك بالحياة والناس من خلال العمل ، ولكن لماذا كان هذا الانفصال عن الحياة . .

ــ صدقنى لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال ، ربما لأن حياتى كانت قاسية ربما لأن شعور القلق المر والخوف الشديد من الناس ، وهو قلق وخوف قديمان ، قد ارتدا إلى أقسى مما ارتدا فى أى وقت من الأوقات . . هل ترى أننى على وشك الجنون .

ــ كلا لا تخافى شيئاً . إن العمل سيغرقكِ فى دوامته ويحول بينك وبين شطحات الخيال .

وتريثت برهة ثم قالت : أدعك وأعود إلى قوقعتى فأنا لا أشعر بالطمأنينة إلا فى داخلها . . .

ــ إن الطمأنينة هنا ليست الطمأنينة المنشودة ، والأصدق أن تقولى الهروب .

ــ وما هو الفرق بين الهروب والطمأنينة . . النتيجة واحدة . .

ــ كلا ، الهروب مصدره الخوف والقوقعة تحميك من الخوف ولكنها لا تزيله . أما الطمأنينة فحالة من الصحة مصدرها الثقة بالنفس والقدرة على المواجهة والاحتمال. والغربة التى أحسست بها ليست إلا قوقعة احتميت بها من الضعف والخوف والقلق .

ــ سأفكر فى هذا الكلام فإنه يستحق فعلا التفكير ، والآن طاب مساؤك .

خالصين ! . .

قالت له: كان هناك عشرون رجلا على استعداد أن يتزوجونى.
سأل : ثم ماذا حدث ؟ . .
ــ خبت ، وقعت فيك ، تزوجتك ففسدت حياتى ، ضاع مستقبلى .
ــ مستقبلك : ماذا كنت تنتظرين أن يكون ؟ . .
ــ خيراً مما هو معك . . .
ــ هل أنت واثقة ؟ . من يدرى لعلك كنت تكونين أسوأ حالا . .
ــ هذا غير ممكن . . أنا جوهرة ، لا يوجد مثلى فى كل بنات القاهرة.
ــ كل زوجة تقول هذا .
ــ اسكت . . أنت لا تعرف ماذا تفعل الزوجات .
ــ وأنت . . هل تعرفين ؟
ــ أسمع . .
ــ تسمعين فقط !
واستشاطت غضباً : ماذا تريد أن تقول . . .
ــ لا شىء . . مجرد خاطر
ــ أنت رجل تلدغ كالثعبان . .
ــ وأنت ؟
ــ بريئة ساذجة ، لا أعرف « اللوع »
ــ هذا ظاهر . .
ــ أنت تسخر منى . . ألم أقل إنك تتكلم وكأنك تلدغ . .
ــ أنا أتكلم فى براءة مثلك تماماً . .
ــ ومن أين جاءتك البراءة ؟

ـ من نفس المصدر الذى جاءتك منه . .
ـ وأنت تتوصل ؟ . .
ـ سنبدأ فى طولة الاسان . . .
ـ أنت هو طويل اللسان . .
ـ وأنتِ ؟
ـ مؤدبة غاية الأدب .
ـ لا يشكر نفسه إلا إبليس . .
ـ من قال ذلك ؟
ـ إبليس . .
ـ وأنت تتحدث باسمه ! . سمعته ! فيك جزء من إبليس .
ـ وأنت . . لا بد أنك ملاك .. هذا ما تريدين أن تقوليه .. أنت تقولينه دائماً . . .
ـ وهل تشك فى هذا ؟
ـ الملاك لا يتحدث كما تتحدثين . . أنت فيك جزء من إبليس .
ـ خير منك على كل حال ، أنت إبليس نفسه . .
ـ الرجل مثل المرأة مرتين ، لا ضرر فى هذا . .
ـ تعرف كيف تتلاعب بالألفاظ . . يظهر أن إبليس دمه خفيف .
ـ والملاك دمه ثقيل . .
ـ رجعت لطولة اللسان . . .
ـ هل تعتقدين أنك ملاك . . مسكينة . .
ـ مسكينة لماذا ؟ . .
ـ وهم يسيطر عليك . . لا يوجد ملاك فى هذه الدنيا . .
ـ أنا الملاك . .

ـ لا أحب أن أعيش مع الملائكة . . لا أستطيع ؟ .

ـ أنت لا تستحقنى . .

ـ وأنت أيضاً لا تستحقيننى . . خالصين . .

الطريق والغابة

قالت لصاحبتها : إنى أتعجل الأيام ، مرورها السريع يسعدنى ، وإبطاؤها يزهق الأنفاس . .

ودهشت صاحبتها وهى تقول : أما أنا فعلى النقيض أكره مرور الأيام . . ليتها تتوقف .

ـ عندك ما تسعدين به وما تتمنينه . . إن الحياة لا قيمة لها من غير هدف .

ـ ليس لى هدف إلا أن أعيش ، أن أستنشق عمرى كله قطرة قطرة . . لا أتعجل شيئاً . . أكره الآلة السريعة ، وتشجينى الحركة البطيئة .

ـ تحبين أيامك وعمرك ؟ . .

ـ أعبدهما . . أكره أن يمر يوم من غير متعة للعقل أو الفكر أو الجسد .

ـ وأيهما أكثر عندك متعة الجسد أو متعة الفكر ؟

ـ كلاهما ضرورى ، نحن من غير الفكر حيوانات ، ومن غير الجسد مخلوقات شاذة . .

ـ أما أنا فأكره الجسد . . هل تتصورين أننى تمنيت لو كنت روحاً محضاً من غير هذا الوعاء .

ـ تعنين الجسد ؟

ـ هذا هو ما أعنيه . . إننى أكرهه . . أنا جميلة ، كل من يحبنى أحس أنه يحبنى لجسدى الذى كرهته . . تمنيت من يحبنى لروحى . . روحى وحدها . .



قالت صاحبتها : لنفرض الروح كالزهرة ..أفليس مما يزيدها جمالا أن توضع فى إناء دقيق الصنع ، يمنحها الماء الذى يحييها . . الزهرة من غير إناء تموت ، والإناء من غير الزهرة أصم لا جمال فيه .

ــ بعض الناس يعنيه الإناء ، ويغمض بصره عن الزهرة . .

ــ وبعض الناس يحب الزهرة والإناء . . وهذا هو الإنسان السوى . .

ــ ولكن الجسد يشيخ . . والإناء يتشقق وينكسر . .

ــ والزهرة أيضاً تشيخ . .

ــ كلا . . الروح لا تشيخ.

ــ هذه أوهام يا صاحبتى . . الناموس واحد ، بداية ونهاية لكل شىء . . . .

ــ وماذا بين البداية والنهاية ؟ لا شىء . . إذا كان لا بد من النهاية فلماذا البداية ؟ . . ومن أجل هذا أتعجل الأيام ، أتعجل النهاية ، لأنها الختام للمأساة . .

ــ تعنين الحياة . . . هل تنظرين إليها كأنها مأساة ؟

ــ أنت ماذا ترين فيها ؟

ــ جمالا أحب أن يبقى ، وإشراقاً أرجو ألا يغيب . .

ــ ولكنه يغيب حتما . . . .

ــ ومن هنا أتعلق به . . . .

ــ تتعلقين بشىء تعرفين حتما أنه زائل !

ــ لا يعنينى المستقبل ، أنا أعيش الحاضر فقط . . أحبه أو أكرهه على حد سواء، ولكننى أعيشه فى كل الأحوال، أستنشقه بملء رئتى ..

ــ الحب مثلا ، ألا يتغير ؟ ألا يموت ؟ وما قيمة شىء يتغير ومن المحتم أن يموت ؟

ــ إنه يتغير أو يموت فى المستقبل ولكنه فى الحاضر كائن حى ،

وأنا كما قلت لك أعيش الحاضر ، لأننى لا أملك غيره . .

وطافت على وجه الفتاة سحابة من الحزن وقالت : ولكننى على النقيض منك لا أنظر إلى الحاضر مستقلا عن المستقبل . . النظرة إلى المستقبل تلون الحاضر أمام عينى . إننى تعسة . . ومن أجل ذلك أتعجل الأيام أريد النهاية ، الموت . . .

ــ وما قبله . . لماذا لا تستمتعين به ؟

ــ لأن شبحه . . . شبح النهاية يجثم عليه . . .

ــ ولكنه فى الحاضر ليس موجوداً . . لماذا تفكرين فى شىء غير موجود وتتجاهلين الكائن الموجود .

ــ لأن الوجود والعدم مقترنان ، الطرفان ظاهران أمامى ، البداية والنهاية . ولا يمكن أن أفصل بينهما وهما كل متصل . . هل للحاضر كيان منفصل عن المستقبل ؟ . . هل للنبات المزدهر كيان منفصل عن الغاية التى يسير إليها وهى الذبول أو الحصاد ؟ . .

ــ نعم له كيان مستقل . . الشباب له لمساته وأفكاره وانتفاضاته التى تختلف تماماً عن الكهولة والشيخوخة . . الحياة لها مقوماتها الخاصة بها والمختلفة تماماً عن الموت . . .

ــ ولكن الحياة طريق إلى الموت . والحاضر طريق إلى المستقبل ، كيف تريدين منى أن أسير فى الطريق دون أن أفكر فى الغاية . . الحب مثلا شىء جميل ، وقد أحببت بكل ما فى قلبى وكيانى ، ثم كففت نفسى عنه لأننى أحسست أنه وهم ، سراب . .

ــ هل خانك من أحببته ؟

ــ لم أثق فيه . . تعذبت لاعتقادى أن كل شىء له نهاية وأن بقاء أى شىء على حاله مستحيل ، والعاطفة داخلة فى هذا الناموس ليس أمامى فى الحياة يقين وما يبدو كذلك يظلله الشك وتقتله النهاية المحتومة . .

— ولماذا لم تسعدى نفسك بالجزء المستيقن منه ؟

— اليقين لا يتجزأ ، والحب الذى أعتقد أنه سيحول يوماً لا يمكن أن يصبح يقيناً فى يوم من الأيام . . .

وهزت صاحبتها رأسها وقالت : الشمس عند المشرق مثلا ، أليست جميلة صاعدة . . ألا ترين فيها معانى يمكن أن تسعدك إلى أن تبلغ الغروب . . . أليست يقيناً واضحاً . . هل يفسده أنها ستغرب ؟

وسكتت الفتاة قليلا ، وأشرق فى نفسها الأمل ، ولكنها قالت : إننى أكره النهايات ؟

— تريدين الخلود إذن ؟

— لست أدرى ماذا أريد . . الخلود نفسه لو منحته سيكون ثقيلا لا يطاق .

— يا صاحبتى تعلمى أن تحبى الحياة كما هى ، إنها طريق لا بداية ونهاية . . . هذا صحيح ، ولكن الطريق نفسه هو المتعة ، بكل ما فيه من مشقة وهناء . من تعثر وانطلاق . . لا تسأليني عن الغاية . . اسأليني عن الطريق . . الحياة طريق والموت نهاية ، الحب طريق والتحول نهاية . . الصباح المشرق طريق ، والغروب الأسيف نهاية . . الطريق أملكه وهو الحاضر ، والنهاية لا أملكها وهى المستقبل . . لماذا أدع ما أملكه إلى لا ما أملكه . .

صفقة زواج

قالت له : تعيش هكذا ممزقاً ، حاولت أن أجمعك إلى بعضك ففشلت . .

قال : لأنك لا تحبينى . . إن الحب قادر على المعجزات . .

نظرت إليه بعين نصف مفتوحة وقالت كأنها تسخر : حسبت أنك الأقوى .

قال فى تصميم : وأنا الأقوى فعلا . . أنت أمامى ضئيلة .

وصرخت : أنا . . أنت الممزق وكأنك جملة من الناس .

سأل فى سكون الواثق : وهل التمزيق دليل الضعف أم دليل القوة .

ـ لا تسألنى ، بل اسأل الناس . . .

ـ أنا لا أسأل الناس ، لأنى أعرفهم بنفسى . . فقط أردت أن أجرب تأثيرك فى . .

ـ كنت تمثل ؟

ـ وماذا يمنع ؟

ـ تكذب ؟

ـ هذا ليس كذباً . . إنه نوع من الاختبار . أردت أن أعرف المرأة التى كنت أنوى اتخاذها شريكة لى . .

ـ كنت . . إذن عدلت . .

ـ أفكر هذا .

ـ هكذا تقول بكل جرأة . .

ـ ولماذا لا أقول؟ كانت الفترة الماضية اختبارا . . أنت تعرفين هذا .

ـ ولكننى لم أحاول أن أختبرك .

ـ يكفى أننى فعلت . . .

ـ أنت أنانى . . .

ـ كنت أكون لو لم أفعل هذا . تصورى لو كنا تزوجنا . . الكارثة ستقع عليك قبلى .

ـ ولكننى أحبك . .

قال وهو ينظر بعين فيها شعاع فاحص : هل أنت متأكدة ؟

أصرت فى تحد : كل التأكيد . . .

سأل فى شبه سخرية : لماذا ضقت بما سميته الشخصية الممزقة . .

ـ لأننى لا أحبها . .

ـ حتى ولو كان صاحبها هو الرجل الذى تحبينه .

ـ أحببت فيه الشخصية المتكاملة .

ـ أنت لا تحبينه إذن ، تحبين شيئاً معيناً فى شخصه . .

ـ أليس هذا هو الحب ؟

قال فى هدوء : كلا ، هذا ليس حباً . الحب شىء آخر ، ينشأ بين شخصين وليس بين شيئين فى شخصين . . الذى يحب الجمال فى فتاته ، والتى تحب الاتزان فى فتاها ، كل منهما لا يحب الآخر . الفتاة تحب الاتزان فى الرجل والفتى يحب الجمال فى المرأة .

ـ وأنت ألم تكن تحبنى . . ألم تقل هذا أكثر من مرة . . لماذا إذن لا تريد أن تتزوجنى . . أنا أجادلك بدعواك . . فرقت بين حب الأشخاص وحب الأشياء . . كنت تحب شخصى أليس كذلك .

ـ بالتأكيد . . .

ـ حسن والآن . .

ـ ما زلت أحبك ، وسأظل أحبك . .

ـ ومع ذلك لا تريد أن تتزوجنى .

ـ هذا صحيح . . الزواج يتطلب حب أشياء قبل أن يكون حب أشخاص . فى الزواج كل من الفتى والفتاة يتطلب أشياء . . .

قالت فى حنق وسخرية : أشياء لا أشخاص . . يا لفيلسوف آخر الزمان !

ـ قولى ما تشائين . . لا تغضبى ، أنصتى فى هدوء . لو اتفق حب الأشخاص مع حب الأشياء الضرورية للزواج ، تمت أعظم رابطة مقدسة فى الوجود .. أما إذا كان الخيار بين الحب الشخصى والحب الشيئى فى الزواج فإن الأخير أقرب أن يبلغ به النجاح .

ـ أنت لا تشترط الحب للزواج إذن .

ـ أشترط توافر أشياء محبوبة من كلا الطرفين . . الزواج ليس حباً خالصاً . . إنه عمر طويل فيه احتكاك وممارسة وأزمات وأمراض . . طريقه ليس ورود الحب وحدها .

ـ ولكن الحب يذلل العقبات . .

ـ حسن ، إنى أوافقك على هذا النظر ولكن هل تسمحين لى أن أطبقه على ما كان بينى وبينك . . لماذا لم يذلل حبك العقبات . . لماذا ضقت بى حينما خيل إليك أن شخصيتى منقسمة أو أننى متناقض . .

وردت فى غير اهتمام : ولماذا لم يذلل حبك العقبات . . لماذا ضقت بى لما رأيتنى أضيق بك . .

ـ أرأيت ؟ إن مثل هذه المجادلات تقتل الزواج ، ولا أريد أن أدخل بالزواج فى تيه من هذه المجالادت . .

ـ وأين الحب ؟

ـ الحب شىء قائم بذاته ، له حياته الخاصة ، جزء منه يكفى فى الزواج ، أما كله فلا يحتمله الزواج . .

ــ أنت تتحدث عن صفقة ولا تتحدث عن زواج .
ــ وهل الزواج إلا صفقة ؟ . .
وتولتها دهشة مفزعة وقالت متسائلة : صفقة ؟ . .
ــ ولماذا تنزعجين . . ألا تسمعين أن هناك زواجاً ناجحاً وزواجاً فاشلا . . إنه صفقة .
ــ ولكن الصفقة لا تكون إلا فى التجارة .
ــ هذا تفسير ضيق . . الصفقة موجودة فى كل شىء . . وحياتنا نفسها ليست إلا صفقة خاسرة أو كاسبة .
ونهضت كالأسد المثخن بالجراح وقالت وهى منصرفة : أنت لا تصلح للزواج . . أنا الذى أرفضك . . هذا هو خاتمك .
وقذفت به فى وجهه ، بينما ظل ساكناً لا يتحرك .

أمومة إذن

قالت له : هل تعرف مدى ما أعطيتنى من سعادة . إنك لا تتصور هذا ولن تستطيعه إلا إذا عرفت طبيعة المرأة .

قال : بل أعرفه ، منحتك الطمأنينة وهناء القلب .

ـ كلا . . . شيئاً آخر أعظم .

ـ أعطيتك خاطرى وفكرى . .

ـ كلا ، شيئاً آخر أعظم . . أنضجت عواطفى ، خلصتنى من الأنانية .

ـ تعنين أنك الآن لا تشعرين بالأنانية . . .

ـ بالنسبة لك ، لا أشعر . . .

ـ تشعرين بها بالنسبة للآخرين . .

ـ ليس عندى آخرون . . . أنت لا تفهم . .

ـ غبى ، كما تعرفين . . .

ـ كلا ، لست غبياً ولكنك لا تعرف المرأة .. هل تتصور أن شعورى لك يختلط فيه شعور الأم نحو ابنها . .

ـ أمومة إذن . . .

ـ نعم فى بعض صورها . . أنا لا أنتظر منك أن يستغرقك الشعور مثلى وأغفر لك هذا ، أغفره بشعور الأم .. إنى أشعر أنى أكبر من سنى بكثير . أحياناً حينما تضع رأسك على صدرى أحس بطمأنينة الأم حينما يعود ابنها . . هل فهمت؟

ـ حتى الآن لم أفهم تماماً .

ـ الأم حينما يتركها ابنها ألا تنتظر عودته ؟ قد يتنكر لها ، قد لا يفكر فيها مثلما تفكر فيه ، قد لا يكون مستعداً للتضحية فى سبيلها كما هى مستعدة دائماً للتضحية فى سبيله . . هل يؤثر هذا أو ذاك على شعورها نحوه وحبها له . كلا . هذا هو أنا . . قد لا تفكر فىّ مثلما أفكر فيك ، قد يكون شعورك أقل ، قد تنسانى فى بعض الأوقات وربما فى كل الأوقات ، ولكننى لا أنساك أبداً ولا أعتب عليك أنك تنسانى .. أليس هذا شعور الأم . . لا تنزعج ولا تتعجب . . قلت لك إنك أنضجت عواطفى وخلصتها من شعور الأنانية . فيما مضى حينما بدأت أعرفك طغى شعور الأنانية على كل شىء . كنت أريد امتلاكك وقد ضايقتك كثيراً . . كلا لم أضايقك ، بل تعذبت وحدى . كنت أبكى وأنت بعيد . . أو غائب ، كنت أبكى لمجرد الشعور أنك قد لا تحمل لى مثل العاطفة التى أحملها لك . كنت أنانية ، أعد عليك الأنفاس والخطوات .

ـ أنت مخطئة . كان شعورى لك دائماً قوياً وعميقاً مثل شعورك وربما أقوى وأعمق .

ـ لا تحاول أن تقنعنى بشىء . أنا أتحدث الآن عن نفسى من داخلى . أنا أقول الحقيقة . لقد حاولت دائماً أن تكون لطيفاً . لم تحاول أن تجرحنى فى شعورى ، أنا أعرفك ، أنت إنسان رقيق .

ـ ولكن . . .

ـ أرجوك . . . دعنى أكشف لك كل شىء . أنت لم تحبنى . وكان هذا يضايقنى ، بل يعذبنى . . أما الآن فقد نضجت عواطفى ، سما حبى على الأنانية وبلغ أفقاً وسيعاً رفيعاً . يكفى أن تكون معى حتى أشعر بسعادة لا مثيل لها . ومن أجل ذلك قلت إنك لا تتصور مدى ما تمنحنى من السعادة ، وأنا عارفة أننى لا أعطيك مثلها .

ـ كلا ، بل تعطينى أكثر منها . . .

ـ قلت إنك لا تعرف مدى السعادة التى تعطينى إياها فكيف تقول إننى أعطيك أكثر منها . أنت تنقلنى من هذا الوجود كله . هل تتصور هذا ولكنه الواقع . الأم حينما تحتضن ابنها بماذا تشعر ؟ وهل تفكر حينئذ فيما إذا كان هذا الابن يحبها كفاء ما تحبه أم أقل ؟ إنها لا تفكر فى هذا . كل ما يعنيها أنها قريرة هانئة أنه معها بين أحضانها . . كل ما يعنيها أن يكون سعيداً فى حياته بها أو بغيرها ، فى بيتها أو فى بيت آخر .

ـ هذا تصوير يغض عن عواطفى نحوك . . .

ـ كلا إنه لا يغض من شىء ، إنه يرتفع عن كل شىء سأظل أحبك إذا كنت معى أو بعيداً عنى ، إذا كنت لى أو لم تكن ، إذا فكرت فى أو لم تفكر . . إذا جئت لترانى أو لم تجئ . كل الذى أنا واثقة منه أننى سأكون طوعك إذا أردتنى .

* * *

و بدت عليه الدهشة وحاول أن يعترض فقالت له : سكوناً يا طفلى إن أملك فى سعادة لا حد لها . لقد نضجت عواطفها ، لم تعد تحبك حباً مجنوناً أنانياً ، ، بل أصبح حباً عميقاً اختلط بكيانها كله . إنها تشعر أنك فى داخلها . . إنها تصلى من أجلك وتخاطب الله فى شأنك . . هو وحده الذى يعرف سرها ونجواها .

دع الصحائف بيضاء

قالت له : اسمح لى أن أقص عليك قصتى . عشت حياتى موفقة ، كأن الحظ يسير فى ركابى . لم أجرب فترة المراهقة ، فقد تزوجت من طبيب وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى . كنت كالخوخة الطازجة ، جمالى هادئ ، أما قوامى فيدير الرؤوس . كنت أبدو لحسن صحتى أكبر من عمرى . آمنت أن الحب يأتى بعد الزواج . . عشت بعيداً عن زحام القاهرة فى أحد مراكز مديرية البحيرة . عشقت الطبيعة والهدوء وعشت سعيدة حتى مات زوجى فتفرغت لتربية أولادى ، وكانوا هم أحبائى وكل ما لى فى هذه الدنيا . كنت لا أعرف إلا اسمى وأنبل العواطف . كانت عندى ينبوعاً لا ينضب ، لم يلقنها لى أحد ، بل كانت راسخة فى أعماقى .

أنا جاوزت الأربعين متدينة أؤدى فروض الله جميعاً . حججت إلى بيته الحرام منذ سنوات . وكم سألته أن يجنبنى الزلل وشغلت نفسى بأولادى ونجحت كأم كما نجحت من قبل كزوجة .

كنا نجتمع نحن أفراد الأسرة فتداعبنى كل من أخواتى قائلة اجلسى إلى جوارى لكى يعود شبابى . أما الصديقات فيقلن إن جمالى طبيعى بدون أصباغ فهو هبة الخالق عز وجل .

أتى الشيطان فى زى أحد أقاربى وحاطنى بعنايته طول السهرة وهمس قائلا : « اخرجى من القوقعة . لقد أديت واجبك نحو أولادك و بقى واجبك نحو نفسك . . تمتعى بالحياة » .

وارتعت . . .

و بعد أيام دق جرس التليفون وكان هو . . كان يسأل : هل من

خدمة ، أنا تحت أمرك . وانسابت الكلمات هامسة .. أنت تظلمين نفسك ليس لنا خيار فى الحب . إنه كالإعصار. لقد أحببتك وتمنيتك منذ الطفولة .

وأصبحت فى صراع مر. حرت فى أمرى ، أنا التى صنت نفسى تديناً وخوفاً من التقاليد . مشيت على الصراط وأنكرت الحب والعاطفة طول حياتى وشاء الله أن يعوضنى بأولادى وآمنت بأن الحرمان له ثمن . وطلبنى مرات وتعددت المحاولات ، وتصادف ذات مرة أن كانت عندى إحدى صديقاتى وعرض علينا أن نصحبه فى نزهة فاستنكرت الأمر وقلت له : هذا من المحظورات ، دع الصحائف بيضاء .

قال : يا ابنة الخال كنت أظن أن كل النساء مدن مفتوحة ولكنى عرفت أنه يوجد صنف كالقلعة المنيعة لا ينال إلا على يد المأذون — ما رأيك فى الزواج . . أنا تعب فى حياتى وأنشد الصدر الحنون . . أنا أعلم يا صديقتى أنك عفيفة ، تقية ، اسمى وثروتى تحت قدميك .

فقلت ساخرة : أنا متزوجة من الصيدلى والمحامى (أقصد أولادى) .

قال : من نكد الدنيا أنه لم تفهمنى امرأة سواك . تعرفين الكلمة قبل أن ينطق بها لسانى ، وإنا لمتشابهان فى الميول والطباع . سيحاسبك الله لأن فى مقدورك إسعاد إنسان فى أشد الحاجة إليك فلا تغلقى باب الأمل فى وجهى .

واشتد الصراع وإذا بى أرى نفسى شخصين : شخصاً عاقلا وإلى جانبه حيوان ثائر ، الزواج ، الدين يقره ولكن هناك العرف والأسرة العريقة التى وضعتنى فى القمة من حيث العقل والاتزان . . لجأت إلى صديقتى أسألها المشورة .

قالت : كفاك تضييعاً للفرص ، إنه يشغل منصباً كبيراً فهو مثال الرجولة الكاملة .

قلت : لا يمكن أن يكون.

ودخل ابنى ورأيت فيه سمات أبيه ، قامته وهيبته . . كان يستعد للسفر إلى إنجلترا لكى يتم دراسته فعانقته وقبلته أكثر من كل يوم وإذا بشقيقه الطالب بالكلية الحربية يقبل رأسى قائلا أعطنى نقوداً فقد نفد مصروفى . وأعطيته عن طيب خاطر فتهلل قائلا أنت أحسن أم فى الدنيا .

وعندما أتى المساء جلست فى الشرفة المطلة على النيل ، وكان القمر يلقى ضوءاً عليه كأنه الزئبق الرجراج واستعذت بالله من ضلالى وشعرت بسكينة عجيبة بعد أن اتخذت قرارى وانتصرت الأمومة « وابتهلت إلى الله : احفظنى يا رب ، فأنا ضعيفة من تراب ».

الحقيقة المؤلمة

قالت له : لماذا تريد أن تشدنى من الجانب الروحى وتصل بى إلى الجانب المادى . إن الحب المعبر حب مجرد لا غرض له . . لا ينبغى أن تدخل فيه المادة . . الجسم مادة . . الحب وحده يؤدى إلى السعادة فلماذا تفسده بالجسد ؟

كنت سعيدة أمس لأننى أفكر فيك ، لأننى أحبك . لأنك بعيد عنى . عند ما أتكلم بينى وبين نفسى أجد مادة للحديث تدوم ساعات وساعات . لكننى حين أتكلم معك أشعر كأن المادة دخلت بينى وبينك . إنى أحب الموت . . هل تعرف لماذا ؟ لأنه سيحرمنى من الجسد فتنطلق روحى لكى تحقق كل ما أحلم به معك . كنت أنظر إلى السماء فى الليلة الماضية وأعجبنى نجمان فى السماء متجاوران . تمنيت لو كنت أنا وأنت هذين النجمين . إنهما لن يفترقا . تمنيت مثلا لو كنا طائرين . . . ولكننى أحياناً أشعر كأن المادة تدخل فى حبى . . إنى أتمنى مثلا إذا جلست إلى جانبك أن أمسك يدك . إن هذا العمل مادى فلماذا أحبه إذن ؟ ولكن تفسيره عندى أنه رمز على أننى لا أريد أن أفترق عنك . . إنه معنى روحى أيضاً .

ومهما يكن الكلام . فإنى أشعر أنه لا يعبر عن إحساسى نحوك . لا بد أن يكون هناك أداة أخرى للتعبير . والموسيقى نفسها تعجز . إن ما فى نفسى عجيب . . عجيب إلى حد أننى لا أستطيع أن أصفه . إننى أحسه . ومن هنا كان تفكيرى فيك ، وأنا وحدى أقوى ألف مرة مما هو وأنا أتكلم أو أنصت إليك أو للموسيقى .

ولولا أنني محكومة بالتقاليد لهويت بقوة إلى الحياة الحرة ، أعيش مع الإنسان الذى أحبه . إن العاطفة عندى يجب أن تكون مجردة من المنفعة ، والزواج منفعة . أى إرضاء جسدى أو غير جسدى هو منفعة . هل عرفت نوع الحب الذى أشعر به . إننى بدأت أكره جسدى لأننى أشعر أحياناً أنه موجود وأن له رغبات تمنيت لو أتخلص منها . . إنه الحقيقة المؤلمة فى حياتى . . وأنا أضغطه وأكبته وأحاول أن أسمو به وأنجح أحياناً وحينئذ أكون أسعد إنسان بالحب وأحياناً ينتصر وحينئذ أكون أشقى إنسان لأننى أشعر أننى خنت الحب . .

النار المقدسة

قالت : إن الشك يساورها فى حب الرجل الذى تحبه. تحس وهى فى أوج سعادتها وهو يبادلها عاطفة من أعمق العواطف ، بدبيب من الشك قاتل ، يجعلها تفزع . فيختلط فى نفسها ضوء السعادة الغامر بهذه الغول التى تؤرقها أتراه يخدعها ؟ أتراه يعطف عليها ؟ أترى ما فى قلبه حنين إنسان أم حب رجل ؟ إن فكرة العطف عليها تقتلها .

وأرقت ليلتها تسأل وتبحث وتراجع وتحلل كل كلمة قالها وقالتها . وكل حركة صدرت عنه وعنها . ما تفسيرها ؟ عطف .. حب . . خداع .. عبث ؟

وأوشك الفجر أن يطلع . ومع خيوطه الرقيقة أشرق على نفسها فيض من السكون ، وآوت إلى خياله ، كأنها تستغفره مما أساءت وأسلفت .

ولكن الشك يعود ، حتى أصبح رفيق حياتها ، رفيق هنائها . . ! أتراه عنصراً لازماً للحب ، بل أتراه عنصراً لازماً للحياة ؟ وحاولت أن تبدده وتسكن إلى طمأنينة دائمة ولكنها لم تنجح . وظلت طمأنينتها ومضات بين موج من الشك ، ولمحات فى خاطر معذب .

* * *

وإنا لنحاول أن نعد فى الحياة ما لا يمكن أن يكون من طبيعة الحياة ، ونحاول أن نجعل فى الحب ما لا يمكن أن يكون من طبيعة الحب .

الطمأنينة الدائمة فى الحياة معناها أن عنصر الحركة فيها قد انتهى ، وهو لن يكون إلا بالموت . وما دمنا نحس بالحياة ونعيشها كما ينبغى أن نعيش فى الحياة فإن الشك يجب أن يكون معها ، لكى يثيرنا ويزعجنا

ويدفعنا إلى السعي والحركة ابتغاء اليقين والطمأنينة . وهذا هو جوهر الحياة . أن نسعى ، أن نهدف ، أن نأمل .

ولو اطمأن الإنسان إلى مستقبله ، ولم يساوره الشك فيه ، لفقد العنصر الأول الذى يجعل الحياة ذات طعم .

ولو اطمأن إلى عمله وتفوقه فيه ، ولم يساوره الشك فى تقديره لأصابه الركود والجمود ولم يتقدم .

ولو اطمأن إلى أن صحته ستدوم ، ما أحس بلذة استبقائها ، وما جعله الشك يحس بهذه اللذة .

والأمر كذلك فى الحب . فيوم يطمئن الإنسان إلى أنه حقيقة قائمة لا سبيل إلى الشك فيها فقد بدأ يفقد الحرص عليه ، واللهفة من أجله .

ولعل ما تقوله الأغانى من أن « الشك يحيى الغرام» أصدق تعبير موجز عن هذا الذى أريد أن قوله . إن الطمأنينة فى الحب معناها أنه بدأ يذوى ويضمحل ويتدهور لكى يبلغ نهايته . .

والذي يحب يجب أن يطمئن إلى الشك ويجفل من الاطمئنان المطلق ، فالشك مظهر الحرص ، وقد يكون من خيالات لا حقيقة لها ، ولكن تغذيه عاطفة من طبيعتها ألا تهدأ . . فهى دائمة القلق والخوف والشك ، دائمة الإنعام على صاحبها بفترات من الطمأنينة تمنحه أجمل ما فى الحياة من صبر ورضاء وهناء . ولا سبيل إلى هذه الفترات ما لم ندفع ثمنها شكاً وقلقاً وخوفاً .

وانظر إلى الإنسان فى نهاية عمره : إن فلسفة الطمأنينة تبزغ على نفسة ، ولا يصبح شيء مما يسعى له الناس يستهويه ، لا الحب ، ولا المال ولا الشهرة ولا المجد ولا السعى لبلوغ أهداف جديدة ، ولا القلق

ولا الخوف . . إنها مرحلة التخلى عن الحياة استعداداً لطمأنينة الموت .

إن العاطفة الحية الملتهبة يسرى فيها الشك كالنار المقدسة التى تطهرها وتزيدها توهجاً ، فإذا فقدت الشك وبزغت عليها الطمأنينة فقد بدأت تخبو وآذنت بالمغيب . .

الحافة والهاوية

كتبت إليه تقول : ذدت نفسى عنك خمس سنوات كاملة ، كنت على الحافة فارتددت إلى الوراء خوف السقوط ، لا تقل إننى نسيتك ، فإن النسيان لا وجود له فى الحياة ، وما يسميه الناس نسياناً ليس إلا سقوط الشيء فى هوة بعيدة عن الذاكرة الواعية ، إن المادة لا تفنى ، وكذلك الأصوات والذكريات والحوادث ،ولو نشط العلم أكثر قليلا لكشف عن كل شيء وقع فى هذه الدنيا منذ كانت للدنيا . . هذا الجو المحيط بنا ، هذا الأثير الملفوف حول العالم، كم فيه من أصوات وأحاديث وخطب ومؤامرات وأكاذيب وحقائق . . . إنها لم تذهب وإن كان أبطالها قد ذهبوا .

ولكن ما لى أتفلسف . . أردت أن أقول لك إننى لم أنس شيئاً عبر سنوات خمس . لم تصبح فى قلبى اللهفة التى كانت فيه ، ولم يصبح فى خاطرى الخيال الذى كان يملأه ، ولكن بقى فى قلبى وخاطرى أننى عشت منذ خمس سنوات حياة مليئة خصبة بالدموع والضحكات .. أنا الآن لا أضحك ولا أبكى ، تزوجت ، أحب زوجى لأنه يحبنى ، أرأيت كيف يحكمنا الواقع ، وكيف تتسرب الأحلام عبر الأيام ، فإذا هى سراب ؟

حاذرت أن أخطئ قبل أن أتزوج ، وها أنذا الآن أكثر حذراً من الخطيئة وقد قتلتها خمس سنوات كاملة ... لماذا تحركت وحملتنى على أن أكتب لك ؟ . . لا أعرف ولكن الذى أعرفه حتما أنى لن أراك ولن أكتب لك مرة أخرى . . إننى أدين نفسى وأحاسبها بمقاييس دقيقة ، حتى

خواطرى لم تصبح ملكى . . حتى خلجات قلبى ، حتى نظراتى وهمساتى .

إن الحب ليس هو كل شىء ، إن فى الحياة أشياء أخرى رائعة وجميلة ، إننى سعيدة ، والحب يمكن تربيته وتنشئته ويمكن الاعتياد عليه ، وقد دربت نفسى على أن أحب زوجى ، وأعتقد أننى أحببته ، إننى لا أشعر باللهفة القديمة ، ولكننى أشعر بجمال الصحبة وألفة السير فى طريق واحد إلى مصير واحد ، ستقول إننى حنثت بعهودى ، وقد يكون هذا صحيحاً عند النظر السريع ، ولكن تأمل معى الحياة ، إن الحب ليس شعوراً خالداً ، وهو على كل حال ليس شعوراً مقطوع الصلة بواقع الحياة التى يعيشها الإنسان .

وقد تغيرت تغيراً كبيراً بعد أن تزوجت ، لم أعد تلك الفتاة الخيالية الوردية الأحلام . تمنيت لو بقيت كما كنت ، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ، والحياة نفسها قد حولت كل شىء وأحاطته بإطار جديد . . طفل ، لا . . بل طفلان . . أنت لم تتزوج بعد ، ولذلك يكون من العبث أن أحدثك عما هو الطفل حينما يجىء . . . أرجوك أن تتزوج وأرجو أن يكون لك طفل ، سترى أن كل شىء قد تغير أمامك . . . إن الأيام حينما تمر قريبة الشبه بالأيام التى صنعت الذكريات ، لا تمحوها بل تزيدها عمقاً ، ولكنها حينما تمر متغيرة فى الزمان والمكان والظروف تصبح كأنها أكوام تتراكم لتخفى الوجه القديم .

لا تنزعج يا صاحبى . . ليست هذه فلسفة امرأة متزوجة تريد أن تذود عن نفسها الحنين إلى ذكريات عزيزة ، ولكنها تجربة أذكر لك الآن نتائجها . . لا أحد يقتنع بالكلام ، ولكن كل إنسان يقتنع بالتجربة .

ولا أنكر أنى أشعر لك بالحنين ، ولكن هل الحنين هو الحب . .
إنى أحب عمرى قبل أن أتزوج ، كما أحب أيامى التى أعيشها الآن ،
لكل مرحلة سحرها ، ولو خيرت بينهما ، لاخترت أن أعيش كليهما ،
أنت لا تزال تعيش فى المرحلة الأولى ، ولذلك ستنكر كلامى الآن ،
ستقول إنها امرأة شاخ قلبها أو امرأة كفرت بالحب ، كلا ، لم أكفر
به . . إنه لا يزال حتى اليوم غذائى ، ولكنه تحول إلى شىء فى دمى
يمنحنى البهجة حينما أكتئب ، ويمنحنى القوة حينما أضعف ، لا يعنينى
ما إذا كنت تحبنى الآن أم لا ، لأننى لا أعيش الحب معك الآن ،
ولكن أعيشه حينما كانت اللهفة بيننا هى الرباط ، وكانت الدموع هى
أجمل ما فى الحياة . .

قلت لك إن دموعى جفت ، والحياة من غير دموع أشبه بالزرع
من غير ماء . . . تمنيت لو بكيت ولكن لماذا أبكى ؟ زوجى يحبنى
ويحسن معاملتى ، كل شىء يسير رتيباً كأنه مرسوم . . . الملل هو السيد
فى هذا البيت ، والملل هدوء قاتل . . . ولكنه هدوء على كل حال . .
تقت الآن فقط إلى ثورة من ثوراتك التى كانت تكاد تفتك بكل شىء ،
تقت إليك وأنت تلطمنى فأظل أبكى إلى أن تثوب إلى رشادك فتعود
لكى تصالحنى .

إن الحياة العاصفة جميلة . . جميلة جداً . . تقت أيضاً إليك وأنت
تغلق الباب فى وجهى فأظل أطرقه إلى أن تفتحه وأنت متجهم . . تقت
إلى نفسى وأنا أرجوك كى ترضى . .

سأتوقف عن الكتابة . . إن الحافة التى هربت منها منذ خمس
سنوات أرانى أبلغها الآن ، تسللت الذكريات مرة أخرى وأوشكت أن
تصبح كائناً حيا . . كلا . . . سأنهى خطابى . . لن أكتب لك مرة

أخرى . . فى هذه المرة أوشكت أن أقترب من الحافة ، من يدرى لو كتبت مرة أخرى أن تستهوينى فأطيل الوقوف عليها . . وأنت تعرف ما هى الحافة لامرأة مثلى . .

هربت منها منذ خمس سنوات وكنت وحدى ، وأنا جديرة أن أهرب منها عشرين مرة وأنا الآن زوجة سعيدة لرجل يحبنى وأم لطفلين أحبهما ... تزوج يا صاحبى حتى لا تبقى بيننا حافة ولا هاوية .

حماقة أخرى

قالت له : الاستقرار فى البيت . . فلماذا لا تتزوج ؟
ــ أخشى أن أفقد القدر اليسير من الاستقرار الذى أعيش فيه .
ــ وهل الوحدة استقرار ؟
ــ الإنسان وحده متركز ومنعزل . ولكنه مع زوجة مستقر ومشتت .
ــ كيف يتفق الاستقرار والتشتت ؟
ــ سأحمل مسئولية إنسان آخر وهذا هو التشتت وسيهيئ لى هذا الإنسان بيتاً وهذا هو الاستقرار .

قالت له : جبان إذن . . تخشى تحمل المسئولية !
ــ لست جباناً ولكنه الخوف من المستقبل . .
ــ وما هو الفرق بين الخوف والجبن ، كلاهما يصدر عن معين واحد . .
ــ كلا ، الجبن ينطوى على الخوف حتما ، ولكن الخوف ليس من المحتم أن يكون سببه الجبن .
ــ ماذا يكون سببه إذن ؟
ــ سببه الإشفاق من أن أفقد حريتى .
ــ حرية السهر والعبث ، حرية التحرر من المسئولية . . . حرية الخوف من أن يزداد ارتباطك بالمجتمع والتحامك بالحياة... حرية الخوف من أن يكون لك أولاد . . تكلم بصراحة . .

وسكت برهة يتأمل فى قلق ثم قال : وما هو البديل عن هذه الحريات جميعاً ؟

قالت : البديل عنها نقيضها : حمل المسئولية والاستمتاع بالأسرة والأولاد والمجتمع . . . أن تصبح إنساناً لك علاقات وعليك التزامات .

ــ أكره الالتزامات ، أحب الانطلاق من غير قيود . .

ــ أنت الآن غير مقيد فهل أنت سعيد ؟

سكت مرة أخرى برهة أطول ثم تردد قبل أن يقول : لست سعيداً تماماً . .

ــ ما ضرك إذن أن تستبدل بحياتك حياة أخرى مهما تكن فإنها لن تجعل مركزك أسوأ . .

ــ من يدريني ، لعلها تفعل... كلا إنني أفضل ما أعرفه على تعاسته ــ إذا كانت فيه تعاسة ــ على ما لا أعرفه ولو كانت فيه السعادة ..

ــ جبان إذن . . وهو ما أنكرته منذ قليل . .

وتوقف برهة ثم قال : أنت متزوجة منذ أمد طويل ، سمعتك دائمة الشكوى ، ساخطة كثيرة السخط ، وسمعت زوجك شاكياً ساخطاً كثير الشكوى والسخط . . أنتما مثل أمامي لا يشجع . .

ــ الشكوى بعض لوازم الحياة ، والسخط دافع من دوافعها . . . . ولو كان سخطي أنا أو زوجي جوهرياً لانفصلنا منذ أمد طويل .

ــ سمعت أنكما تنويان . .

ــ لقد انتوينا الانفصال عشرين مرة ولم ننفصل . . لا تصدق شكاوى المتزوجين . .

ــ لماذا يشكون إذن ؟

ــ طبع الإنسان على الشكوى . . أنت لست متزوجاً ومع ذلك فأنت دائم الشكوى . . .

ـ خير أن أشكو من نفسى ولنفسى من أن أشكو من غيرى لنفسى وللناس .

ـ أنت مع غيرك مجتمع ، ومع نفسك منعزل . والمجتمع خير من المنعزل.

ـ من قال ذلك ؟. .

ـ قاله الإنسان منذ وجد . . . كان وحيداً فسعى إلى أليف . . . كان فرداً فألف جماعة ، كان جماعة فصنع قبيلة ، وكان قبيلة فصنع دولة ، وكان دولة فاتحد مع دول أخرى.. إنها غريزة يا سيدى ، لا تسألنى ما فائدتها ولكن اسأل نفسك لماذا وجدت الحياة . . ولماذا نموت . . ؟ أسئلة لن يعرف إجابتها أحد .

ضحك وهو يقول : قرنت الزواج بالألغاز التى لم يعرف لها الإنسان حتى اليوم حلا !

ضحكت هى الأخرى وقالت : صدقنى إنه لغز . . وهل الحياة إلا ألغاز ، وهل نحن فيها إلا لكى نرتاد ألغازها ، نحاول حلها . . . . لماذا ذهب الإنسان إلى القمر ، أليس هذا منه محاولة لحل لغز ؟

قهقه ضاحكاً وقال : من لغز الزواج هكذا ، من غير تمهيد ، إلى لغز القمر . . أنت أستاذة فى العلوم ، هل لديك كتاب علمى عن الزواج . . أقصد عن لغز الزواج . .

ـ أعطيك عشرات الكتب ولكنها لن تحل لك اللغز . .

ـ لماذا كتبها أصحابها إذن ؟

ـ محاولات ؟ . . إن كل ما يصنعه الإنسان فى الحياة محاولات لحل ألغازها ، لعله يصل فى النهاية إلى السعادة . .

ـ بعد عشرات الألوف من السنين لم يصل إلى السعادة . . هل يطمع أن ينجح ؟.

وهنا دخل زوجها مثقلا بحمل ضخم من الكتب ، هو الآخر أستاذ علوم ، وقال باسماً : فيم كنتما تتجادلان ؟ . . .

قالت الزوجة : لا أعرف كيف أحدد الموضوع بالضبط .

قال : سمعت كلمة السعادة . . هل كانت هي الموضوع ؟

قال المرشح للزواج : كلمة وردت خطأ . . كان الحديث عن ألغاز وحلها . .

وقالت الزوجة : كنت أحاول إقناعه بأن يتزوج .

— وهل اقتنع ؟

— أوشك .

وهنا صرخ المرشح للزواج قائلا : لم أقتنع ولن أقتنع . . . لا العلم أقنعني ولا الواقع .

قال الزوج : عيبك يا صاحبي أنك تسرف في الاعتماد على العلم وتسرف في البحث والتأمل . . ألم ترتكب في حياتك حماقة ؟ . .

— ارتكبت الكثير . .

— أضف إليها حماقة أخرى . . لن تندم كثيراً . . . الحياة نفسها حماقة كبرى ، فماذا تتوقع من جزئياتها أن تكون ؟

وسوسة شيطان

قالت وفى عينيها دمعة حائرة : هل يمكن أن أقضى الحياة هكذا . امرأة فى ربيع العمر محجوزة بين الأركان . لقد اقتربت الأعياد . الجميع يستعدون لحفلاتها ، الموسيقى والصخب والسجائر والمرح . . كلا ، لا بد أن أعيش . إننى لم أذق الخمر . . لم أرقص ؛ تعلمته ولكننى لم أمارسه . زوجى رجل محافظ ، فكيف أصنع وتقاليد أسرتى تقف على صدرى كالحجر الثقيل . وأنا لا ينقصنى المال ، أريد أن أقفز وأجرى وأمرح بين الحدائق والصحارى والجبال على السواء ، يتابعنى رجل أدوخه وأنا أراه يتلظى رغبة . . . لقد شهدت الآن فيلماً فى السينما . . أريد أن أحيا هذه الحياة ، القبلات التى تعتصر الكيان وتهز القلب والجسم والفؤاد ، الهمس الذى كأنه نبع من الحنان .

كلا . . . لن أرضى بهذه الحياة ، لن أريق وجودى قطرة قطرة فى حرمان مر وعذاب لا نهاية له . أنت لا تعرف من أنا ولذلك أتكلم بصراحة . . لا يخدعك ما تراه من مظاهر . اسألنى وأنا أقول لك شعور المرأة ، سألبى الدعوات التى جاءتنى لعيد الميلاد ورأس السنة . سأرقص ، سأدخن ، سأشرب ، سأعيش ليلة فى العمر . . لن يهمنى شىء . . زوجى ، أسرتى ، تقاليدى ، سمعتى . . سخافات أشد نكراً من سخافة وجودنا . . أولادى هل وجدت من أجلهم أو وجدوا من أجلى . . وهل لى كيان مستقل عنهم ، أم أنهم وأنا كيان واحد ؟ . .

لماذا أحجز أنا ويخرج الآخرون . . لماذا يكون بيتى فى كآبة الظلام وبيوت الآخرين فى بهجة النور ؟ . . لماذا ؟ لماذا ؟ وأنا لا أزال شابة

فى ربيع العمر واكتمال النضج .. إنى لأنظر إلى ما وهبنى الله من جمال وأكاد أكفر به . . لماذا أغدق على ما لا فائدة منه ؟ جمال بين الجدران محرم عليه النور . .زهرة تموت فى الأكمام . . بسمات لم تعرف طريقها إلى الشفاه ، وضحكات ماتت قبل أن تولد وأحزان عاشت دون أن تولد .

كلا ، إنها وسوسة الشيطان . . بيتى فى الظلام أشرف من بيوت الآخرين فى بهجة النور . . أولادى ، أسرتى ، زوجى . . كلا . . إنهم أعز عندى من نفسى . . سأطوى ضلوعى على أساى . . كلا ، ليس لى أسى . . والأعياد ، الرقص ، المرح ، الجرى . . أتمناها ، إنها جميلة ، إنها الحياة . . كلا ، إنها حياة الفارغين الذين لا شرف لهم ، الشرف ، ماذا هو ؟ . . لا . . . لا . . . إنها وسوسة شيطان ، الشرف هو كل شىء .

مشيئة الله

قالت له وهى تلف ذراعيها حول عنقه : حدثنى . . تكلم . . تكلم فى كل شىء . أشعرنى أننى إنسانة كفء لك . . إنك لا تنظر إلى شىء آخر غير جسدى . . هل أنا دمية وجدت فقط لكى تتلهى بها ؟ إننى أضيق بنفسى كلما ظننت أن جسدى وحده هو التقدمة والشفيع إليك .

وسكت وهو ينظر فى عينيها . كان صفاؤهما مشعاً والضياء المنبعث منهما خليطاً من العتب والخوف والقلق. واستطردت تتحدث إليه : لماذا أنت ساكت ؟

قال : تحدثى أنت ، إنى أرقب شخصيتك. أحب أن أسمعك. أنت مخطئة إذا ظننت أن جسدك هو الذى يربطنى إليك . تربطنى إليك روحك ؛ ابتسام عينيك ، صفاء هذا الوجه الذى ألمس فيه يد الله . إنك لا تعرفين كم تأسرنى إطباقة هاتين العينين فأرى فى أحلامهما أجمل الرؤى . أشعر أنى ألمح معك طيوف الهناء والنعيم . .أتريدين أن أحدثك فى السياسة والأدب والاقتصاد ومعارك الحرب ؛ بالله ألا ما أرحتنى منها؟ ألا تريدين أن تكونى روضاً رفافاً بالابتسام ، وزهراً يشدو بنغم من الجنة؟ أتريدين أن تجعلى حياتى كلها سياسة وأدباً واقتصاداً وحرباً ؟ ألا يكفيك أنك الواحة وسط الصحراء والنجم المتألق فى ليل حالك الظلام . . أنت مخطئة إذا ظننت أن ما بينى وبينك جسداً . . كلا إن الأجساد كثيرة ، ومتعتها أرخص المتع التى فى الدنيا . إنك تمنحيننى سلام النفس والقلب وهدوء الصدر والخاطر . . أريد أن أنسى وأنا معك أن الدنيا فيها شر وصراع وجسد وتنافس وقوى وضعيف ، أريد أن أحس أن كل ما فيها هناء وخير وجمال وزهر وابتسام وعيون فى عمق الأبد والأزل معاً . . إنك وحدك دنيا بأسرها لماذا تريدين أن أحدثك عن دنيا غيرها ؟

* * *

ونظرت إليه بعين فيها بريق من العرفان وأرخت أهدابها ووضعت رأسها على صدره وقالت تحدثه وكأنها تحلم : إذن أنا شئ مهم فى حياتك . . حسبت أننى تافهة لا أصلح إلا للزينة وقضاء فترة من الوقت الجميل ثم لا شيء بعد ذلك . ترى هل أزور خاطرك وأنت مشغول بمهامك الكثيرة . . هل يضطرب قلبك أحياناً بذكراى . . إنك تعيش معى دوماً . أحلك فى كل شيء حولى . إذا تحدثت أو سافرت أو أقمت أو حزنت أو فرحت فأنت هناك دائماً ولكن أنا بالنسبة إليك . . ماذا أكون ؟ أخشى لا أكون سوى شيء يصلح لأوقات الفراغ . .

طوى يديه حول أجفانها وقال لها : أغمضى عينيك . . ماذا ترين ؟

أجابت : أراك .

وقال لها : افتحى عينيك . . ماذا ترين ؟

أجابت : أراك . .

قال : هل يظن أحد وأنت مغمضة العينين أنك ترينني . . هكذا أنا لعلنى أبدو وأنا مشغول كأننى لا أرى ما هو أمامى . ولكن الإنسان ينظر ويرى ما فى نفسه، ينظر ويرى بقلبه. إنك قد تفتحين عينيك وأمامك عشرة أشخاص فلا ترينهم بينما ترين شخصاً آخر ليس معك . . إن العمل والجهد والضنى وكل ما نضطرب به من سعى وصراع وقلق ونحن نتسابق من أجل الشهرة أو المال أو السمعة الحسنة ليس هو حياتنا . . إن حياتنا الحقيقية تعيش فى داخلنا . وأنت الحياة . إذا كنت موجودة نظرت إليك فإذا لم تكونى موجودة نظرت إليك بقلبى . . إنه ينتظرك . . إن حياتى انتظار طويل وأنا أشغل نفسى بالعمل حتى أحتمله ، هل فهمت ؟

* * *

وكانت عيناها مغمضتين ويداها تلفان كتفيه وسقط رأسها دون وعى منها على صدره وبدت كأنها نائمة ولكنها استيقظت .. وفتحت عينيها ولم تتكلم . نظرت إليه فرأى فى عينيها بريقاً لم يشهد مثله.

قال لها : إننى خائف منك . . إن ما فى عينيك حب لا أحتمله .

قالت : لأننى أحسست الآن أننى شىء فى حياتك .. إن كل ما يعذبنى ن أكون مجرد دمية للتسلية واللهو . . أما الآن . . الآن . . ماذا أقول لك . . لقد رفعتنى ، أسعدتنى . . إننى أعبدك .

سألها : أتريدين أن أحدثك فى السياسة ؟ . .

قالت : لا تحدثنى فى شىء انظر إلىّ . . إننى أقرأ فى عينيك الآن كل شىء . أحسست أننى فى داخلك . كل ما تعرفه أعرفه أنا بغير حديث . اقترب منى . . . أريد أن ألمس وجهك وأضع يدى على فمك الذى أسعدنى وعلى قلبك الذى أضاء نور الحب فى كيانى . . إن الجسد فى يضعف ويضعف والروح يقوى ويقوى . لمحات من نسم علوى ترفعنى إلى السماء وأنت معى . . هل ترى هذه المركبة الفضية وهى تنساب فوق السحاب . . السحاب الأبيض الرقيق الذى يتبدد ليجتمع ويجتمع ليتبدد . . الذى يضىء ويظلم ويسير ويقف إلى ما لا نهاية وإلى لا غاية . . لأنه خالد فى رحلة لا تنتهى . . لا تقل لى إن الليل يمر والنهار ينتهى . . لا تقل لى إن الدنيا فيها موت بل فيها خلود . . لا تقل إن حبى فيه جسد فان ولكن قل إن فيه روحاً خالدة . . جسدى ، قلبى ، كيانى ، أنا كلى ملك لك . . ضمنى إلى صدرك بعنف . . عنف شديد . كما أن قلبى فنى فيك ، أريد أن يفنى جسدى فيك . . كنت قد كرهت جسدى لأننى حسبت أنك تحبه وحده أما الآن فقد أحببته لأنك تحبنى أنا . .

وقال وهو يعبث بأناملها : وهل هناك حب للجسد من غير الروح ؟

أجابت : حسبت ذلك فكرهته ..

قال : أتكرهين منحة أنعم الله بها عليك ؟
قالت : المنحة هى الروح . .
قال : والجسد هو الوعاء . .
قالت : وإذا مات الجسد ؟
قال : يسترد الله وديعته .
قالت : وتحبك روحى .
قال : ونخلد معاً
قالت : إذن أنا أحبك روحاً وجسداً . إنها مشيئة الله خالق الروح والجسد

فى أرض الهيكل

جلست إليه . وكأنها عند قدمى كاهن . كان ذبول الخوف يشرق خافتاً من عينيها ورجفة الهم تجعل شفتيها تضطربان . وجعلت تنظر إليه فى وجوم صامت وصمت واجم ورابه منها هذا الصمت فعهده بها مرح حلو وإشراق باسم وصوت فيه عرائس المنى والأحلام

وقالت وكأنها تتحدث من وراء ظلال الأعمدة فى هيكل : أتحبنى من أجل جسدى ؟

قال : كلا .

قالت : أتحبنى من أجل روحى ؟

قال : كلا .

قالت : أتحبنى لأنك تحب الخطيئة ؟

قال : كلا .

قالت : أتحبنى لأنى أحبك ؟

قال : كلا .

قالت : أتحبنى لأنى أخلص لك ؟

قال : كلا .

قالت : إذن لماذا تحبنى ؟

قال : لأنك أنت .

قالت : هل تعرفنى ؟ . .

قال : ما حاجتى أن أعرفك ؟ إن قلبى ينبض حين يراك . عينى تدمع حين أحس الحزن فى قلبك . أشعر بك فى كيانى روحاً ونسماً وجسماً ، فضيلة وخطيئة .

قالت : دعني اعترف لك إذن . لا أستطيع أن أخفي عنك شيئاً . في أوقات أراك الكاهن الذي يجب أن أعترف له . . في أوقات أراك الحبيب الذي أغرق همي في صدره الحنون . وفي أوقات أراك الرب الذي أرهب الدخول في جنته وأنا مخطئة فأصلي وكأنني أدخل محراباً مطهراً . . في أوقات أراك الشيطان ، في أوقات أراك الملاك . وأنت في كل حال الملجأ الذي أشعر فيه بالطمأنينة من الخوف والتطهر من الذنب . لست أدري كيف حدث هذا ؟ ما من إنسان أستطيع أن أعترف له بخطيئتي إلا أنت . كل إنسان سيحتقرني! . إن الناس منافقون . كلهم صنعوا من الخطيئة يشربونها صباح مساء ويعيشون فيها وتعيش معهم . ولكنهم إذا سمعوا عن خطيئة الآخرين هزوا رؤوسهم واستعاذوا بالله من الشيطان الرجيم .

لقد أعطيتك عهداً أشهدت عليه ربي أن تكون وحدك هواي : لم تطلبه مني . ولم تفرح له . قلت إنك تكره العهود والمواثيق ، وتؤثر بساطة النفس وضعفها على ادعاء القوة وتحدى الإغواء وسألتك حينئذ ، ما هو الشر فقلت ، لست أعرفه . وما من أحد في الدنيا يعرفه . كل إنسان يتحدث عن الأشرار الآخرين ، وهؤلاء الآخرون لا وجود لهم ، ما من أحد يعترف بأنه شرير .

وسألتك حينئذ : وهل أنت شرير أجبت : نعم ، في بعض الأحيان أنا إنسان .

« أتقبل مني الآن أن أقول لك إنني شريرة . لقد أعطيتك عهداً ولا بد أن أفي . ما من أحد ملأ قلبي كما فعلت ولكن هل رأيت إلى السباح يريد أن يجرب مهارته بين الأمواج المتلاطمة ؟ هل رأيت إلى من اجتمعت له الثروة يريد أن يجرب الفقر ؟ أرأيت إلى من منحه الله الإيمان يريد أن يتلظى بنار الكفر ؟ إنها النفس الإنسانية ، هذا الجوهر العجيب ، الذي لا يستقر ولا يهدأ لأنه خلق من تطلع وقلق .

لم أصنع شيئاً . ولكننى استمعت إلى الغزل واستطبته . أحسست بدبيب من الشعور عجيب وأطلت لمن غازلونى فى حبال المنى ، لم أمنع ، لم أصد ، ولم أفرح ، ولم أحزن ، هل أحببت أحداً منهم ؟ لا أستطيع أن أقول لك ، سأروى لك قصة كل منهم ، ستقول إننى غازية ليل ، فتاة مغامرة لا تعرف الحب ، ولكن تعرف العبث ، كلا ، إننى أنثى ، أردت أن أدخر فى شبابى كل التجارب ، وكما قلت لك ، كنت أشبه بالسباح يعرف أن صخرة النجاة قريبة منه ، فى يده بين جوانحه فى ضميره فى كيانه ، ما من بأس عليه إذن لو ذهب يطارد الموج والموج يطارده وهو مطمئن أنه إذا أوشك على الغرق وجد الملجأ الأمين الذى يعصمه منه ، كنت أنت هذا الملجأ الأمين

« كنت أخطئ لكى أروى لك خطئى ، كنت أخطئ لأننى إنسان لا بد أن يخطئ وأعترف لك أننى أخطأت عامدة ، كنت أريد أن أعرف الرجال

قال : وهل عرفتهم ؟

قالت : هكذا تسأل بكل بساطة . . . ألم أثر غيرتك بهذا الكلام ؟

قال : الغيرة تثور فى القلب الهش الصغير الذى يطلب فى الناس أن يكونوا ملائكة . لا أنت ولا أنا ولا أحد من الناس يمكن أن يكون ملاكاً . الخطيئة هي خبزنا اليومى ، لقد ابتسمت حينما بذلت عهدك لى ، لأننى كنت أعرف أنك لن تصونى العهد ، لا لأنك فتاة شريرة . . لكن لأنك إنسان .

قالت : أفهم من هذا أنك تخطئ أيضاً .

قال : أنا إنسان .

وغامت فى وجهها الحلو سحابة من القلق والندم وانحدرت دمعتان على وجنتيها ، وقالت : غطنى بصدرك ارحمنى بقوتك من ضعفى ، كلا ،

كلا ، إنى لا أحبك ، أريد الرجل الذى يمزقنى غيظاً ، ويقلب الأرض إذا أحس أن إنساناً آخر يشاركه فى :

وهدأت قليلا : وأشرقت بسمة الدعة وسط دموعها وشدت على كتفيه بيديها وقالت كيف أريد من الملجأ الأمين الذى يعصمنى أن يمزقنى من الغيظ أو الندم ، أنا الآن فى أرض الهيكل و بين يدى الإله .

الصمت والكلام

سألته أن يفضى بعواطفه . . . أن يتكلم أن يقول كل شيء . كان صمته يؤرقها . . كانت أشبه بموسى لم ترضه معجزات ربه الذى اصطفاه فقال : ربى كلمنى حتى يطمئن قلبى . .
ولكنه ظل صامتاً .

قال بينه وبين نفسه : إذا لم تكن تفهم نبض القلب وتحسه . . . إذا لم تكن تفهم إشراقة الوجه وصوت الشعاع المنبعث من العين ورجفة اليد ولمسها فهل هى مستطيعة أن تفهم الكلام وتؤمن به . . .

الكلام ، ما أكثر ما يخدع ، إن الألفاظ نملكها ، نستطيع أن نديرها كيف نشاء إنها أرخص متاعنا ، وأقل ما وهبنا الله اتصالا بالقلب والروح . إن العقل يدخل فى اختيارها ، والوقت الذى يمر بين قيام التفكير فى الكلام والنطق به كاف كى يحوله إلى ما يريد العقل ، ويريد الظن ويريد التدبير ، وكثيراً ما كان الصمت أبلغ من الكلام . ومن العواطف ما يشل اللسان ، وفى أروع اللحظات التى يبلغ فيها الانفعال مداه ، تتعطل الحركة ويقف التفكير ، وتكون اللمسة والنظرة وربما الإغفاءة أكثر فى النفوس تأثيراً وأقرب إلى القلوب نفاذاً .

من منا استطاع ، وهو فى أوج انفعاله أن يتكلم . . إن كيانه كله حينئذ يرتجف : قلبه ، عقله ، تفكيره ، روحه ، كل نبضة فيه ولمسة تتحول إلى تعبير . . يصبح أشبه بالسلك الذى مسته الكهرباء . . الكلام يصبح أمامه أضعف وسائل التعبير : اللغة ، الفصاحة ، البلاغة ، كل ما أوتى من تجربة وفهم وذكاء يحسبها جميعاً أضعف مما شمله من انفعال

ولو كان الكلام كافياً للتعبير لماذا كانت الموسيقى إذن ؟ لماذا كان الرسم والنحت والتصوير؟ بل لماذا كانت الدموع تحرق العين ، والآهات تصهر القلب ، واللمسات العلوية ترفع الروح فكأنها بعض النجوى و بعض السر الكامن فى أصل الوجود ؟

وإن من العواطف ما يسمو على الكلمة و يقف منفرداً كأن الدنيا لم تخترع له تعبيراً ، وإنا نشعر أحياناً أن الموسيقى والأدب وسائر الفنون تعجز عن تصوير العاطفة . . وإن بعض القلوب لتشعر أن ما فيها أقوى من كل ما فى الدنيا . . العقل وحده هو الذى يستطيع أن يعبر عن نفسه بالكلام لأنه يقيسه و يرسمه ، إنه ينقل معادلات وحججاً و براهين و يدفع شبهات وشكوكاً . . أما القلب وما فيه ، كيف يكفى الكلام وحده للتعبير عنه ، وإنه لأقل وسائله وأضعفها شأناً . .

إن الفنون والآداب وجدت لكى تعبر عن القلب ، والأغانى ذاتها لا تحفر كلماتها فى القلب ما يحفر النغم . . وكثيراً ما سما الإنسان بعاطفته عن الكلام ، أحس أنه يهينها ، لأنه يشعر أنها فى كيانه ، وكيف يحتاج الكيان الناطق إلى تعبير باللسان .

طارق جديد

أحست بضلال عاطفى لم تعرف السبيل إلى الخلاص منه .

كانت تسأل نفسها فى كل وقت عن العلاقة بين الجسم والعاطفة ، عن القلب والروح وتسخر ممن يتحدثون عن القلق ، فلم تكن تشعر إلا أنها تعيش فى وفاق بين العاطفة والجسد والقلب والروح كانت حياتها نغماً منسجماً وأغنية جميلة التوقيع .

ثم دخلها القلق ، أشبه بالضباب والندى ، فاستقبلته أول الأمر فى حنين لذيذ تسرب إليها فى استواء كأنه المخدر . كان ليلها هادئاً . . وجاء هذا القلق كالحلم الرقيق ، كالزهرة تلقى فى الغدير الصافى فلا تفسد صفاءه ، ولكن تضيف إليه عطر الزهور

التقت به مصادفة ، واستمعت إليه ، سحرها حديثه . واستولت عليها شخصيته وعادت إلى بيتها وفى قلبها دبيب كحفيف الشجر . ارتاحت إليه لأنه كالهمس العذب يسكت فى الضجة ويحوم حول قلبها فى الهدوء .

وفى الليل حينما أوت إلى مخدعها ، أحست بالدبيب يشتد و بالحنين يلح ، تولاها الرعب ولكنها تبسمت ساخرة وطردت هواجسها واستغرقت فى نوم هنىء

والتقت به مرة ومرة تستمتع بحديثه وتأسرها شخصيته وتخرج من هذا وذاك راضية . حياتها تسير رتيبة ، لا قلق ، ولا اضطراب ، ولاؤها حيث كان ، وقلبها حيث كان ، وحبها حيث كان . لا جديد سوى الحنين الرقيق والخيال العذب والحديث الجميل يطن فى أذنيها شدواً فيه الغموض والسحر .

وتراخت الأيام والليالى فإذا الدبيب الرقيق يتسرب فى قلبها وخيالها رويداً رويداً ، وإذا الحنين الهادئ يتسلل إلى كيانها ، فإذا هو قلق أو ما يشبهه .

أحست أن هذا الحنين الغامض أصبحت له معالم . كانت تتخلى عنه إذا كانت لا تريده ، فلم تكن فيه حياة ولم تكن له حرمة أما الآن فقد شعرت أن الحياة تدب فيه .

أصبحت له إرادة وحرمة .

ما هو ؟ ولماذا نشأ ؟ ما مصيره ؟ بل ما مصيرها ، إن قلبها مشغول ، لا مكان فيه لطارق جديد . إن حياتها تسير هادئة جميلة وادعة لا ينقصها شيء .

هل لابد من صراع ؟ هل لابد من قلق ؟

وطالما سخرت مع الساخرين من الحيارى المعذبين بين عواطف تشب وتشتعل ؟ أكتب عليها ما كتب عليهم من صراع وقلق ؟

أهذا عقاب سخريتها وإنكارها وجحودها ؟

ترى هل يريد القدر أن يجعل ضحكاتها دموعاً ؟ أتراه يأبى إلا أن يتقاضى الثمن باهظاً يفدح ؟

واحتارت ، أطارق جديد والقلب مملوء ؟

هل يمكن أن يطرد الحب حباً . . . إذن فيم كان النبض الأول والعذاب الأول والهناء الأول ؟

فيم كانت الأشجان والأحلام وسهر الليالى والأيام ؟

فيم كان القلق والضنى ؟ فيم كان الميلاد العسير لعاطفة نبتت وسط الحرمان والدموع ؟

أيمكن ألا يكون ما فى قلبها حباً ، ويكون الطارق الجديد هو الحب السعيد .

* * *

وذهبت إلى صاحبها مرتاعة ، قالت له : احمنى ، احفظنى ، حدثنى . . . لا تدع أحداً يأخذنى منك .

قال : من يستطيع ؟ أنت كيانى . .

قالت : نفسى . . قلبى ، عواطفى ، قلقى ، خيالى ، أوهامى . اجعلها كلها لك . احرص عليها . . ضمنى أكثر وأكثر حتى لا يتسرب منها شىء .

ولم يفهم .

قال : هل هناك أحد ؟

قالت وهى تصرخ : كلا . . كلا . . . حدثنى . . دعنى أسمع صوتك ، تكلم . ليس بهذه الطريقة ، بل بتلك . . .

كان رنين صوت الرجل الآخر فى أذنيها هامساً ، خافتاً ، ولكنه كان قوياً حجب عنها الصوت القريب منها .

العش والقفص

قالت له : « الوقت الوحيد الذى أشعر فيه إننى أمتلك زوجى ساعة يلفه النوم على كتفى أو على صدرى وألف ذراعى حوله . . . إننى فى ضيق من حياتى مع هذا الرجل . . إننى أحبه حباً جنونياً . . ربما كانت هذه غلطتى وقد حاولت أن أردهذا الطوفان عنى ولكننى لم أستطع ... لا أثق فى كلمة يقولها ولا أثق فى صمته . إننى أتعذب معه إذا تكلم وإذا صمت . أتعذب أيضاً إذا أكد لى أنه يحبنى وأتعذب أكثر إذا سكت عن حديث الحب . طوال غيابه عن البيت لا أتصور إلا أنه يغازل النساء ويجرى وراءهن . تمنيت لو كسرت دماغه وعرفت ما فيه . . حتى وهو معى يخيل إلى أنه ليس معى . وإنى لأغريه أحياناً بالنوم حتى أهدأ . أشعر متى نعس نعاساً عميقاً ولففت ذراعى حوله أننى امتلكته وأنى أرقب أحلامه وهواجسه . . حتى أحلامه ترعبنى ، تمنيت لو كان الإنسان لا يحلم ، تمنيت لو كف عقله الباطن عن العمل أثناء النوم .

« حتى فى نومه لا أشعر بالراحة والهدوء ، يخيل إلى أن عقله الباطن يشتغل . . . فى ماذا يفكر . . . بماذا يحلم . . أى المخزونات فيه . . أى الرغبات والعواطف المكبوتة ؟ . . . تمنيت لو شققته هو أيضاً . . إننى أسمع من صديقاتى شيئاً آخر . . . أسمع أنهن لا يفكرن مثل تفكيرى ، حسبهن أن الرجل يأتى فى ميعاده وينصرف فى ميعاده ، حسبهن أن يؤدى واجبه نحوهن ولا يسىء معاملتهن .

« لابد أننى امرأة غير عادية . إن زوجى رقيق معى جداً . يبدى حباً وعطفاً لا مزيد عليهما . . . ومع ذلك فأنا تعسة . لست أدرى لماذا لا أومن بالظواهر ، لماذا لا أثق فيها . . . يخيل إلى أحياناً كثيرة أن

المبالغة فيها تخفى أشياء أخرى . . وأذهب وراء هذه الأشياء . . . مصيبتى أنى أذهب وراءها ولا أعرفها . . . لا بل إنى أعرفها ، إنها بعض خيالى وأوهامى .

قلت له ذات يوم : أنت تخدعنى .

قال : أنت تخدعين نفسك ، تظنين أنك بهذا الحرص الزائد تحتفظين بى . العصفور المحبوس يفكر فى الهرب .

— ولكن القفص جميل .

— ليس فى الدنيا قفص جميل .

— حتى ولو كان فيه الحب ؟

— الحب حرية وليس قيداً . أنت لا تشعرين بجماله وحوله كل هذه القيود . . . دعينى حراً

— أخشى أن تطير .

— العصفور يرجع دائماً إلى عشه ولكنه لا يرجع أبداً إلى القفص .

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٨

الكتاب القادم ...

البحر والناس

تأليف:

الدكتور سيد حسن شرف الدين

دار المعارف بمصر

تقدم للناشئة والشباب كتابين جديدين

في مجموعة (أولادنا)

- حصان طروادة — الثمن ١٨ قرشاً
- عودة المحارب — الثمن ١٨ قرشاً

صدر من هذه المجموعة ٢٥ كتاباً

اشترك في تحريرها أعلام القصة في الشرق والغرب ، وازدانت بصفاء لغتها وقوة أسلوبها وأناقة رسومها وجمال إخراجها .

(ثمن النسخة من كل كتاب بين ١٥ و

